دكتور محمد دويدار
استاذ الاقتصاد السياسى
كلية الحقوق - جامعة الاسكندرية

مبادىء الاقتصاد السياسى

الجزء الأول

الاقتصاد السياسى علم اجتماعى - تاريخ علم الاقتصاد السياسى

الاسكندرية
١٩٩٣

كتب للمؤلف

* نماذج تجدد الانتاج ومنهجية التخطيط الاشتراكى (باللغة الفرنسية)، مطبوعات العالم الثالث ، الجزائر ، ١٩٦٤ ، ١٩٧٨.
* مشكلات التخطيط الاقتصادى ، محاضرات القيت على طلبة السنة الرابعة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية (جامعة القاهرة) وكلية التجارة (جامعة الاسكندرية) ، الاسكندرية ، ١٩٦٦.
* مشكلات التخطيط الاشتراكى ، دراسة فى تطور الاقتصاد المصرى ، المكتب المصرى الحديث ، الاسكندرية ، ١٩٦٧.
* دراسات فى الاقتصاد المالى ، المكتب المصرى الحديث ، الاسكندرية، ١٩٦٨. الطبعة الثالثة ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، ١٩٧٩.
* دروس فى الاقتصاد النقدى ، الجزء الأول : التعريف بالنقود، المكتب المصرى الحديث ، الاسكندرية ١٩٧٣، الطبعة الرابعة ، دار الجامعات المصرية ، الاسكندرية ، ١٩٨٠.
* الاقتصاد السياسى علم اجتماعى (باللغة الفرنسية) ، فرنسوا ماسبيرو، باريس ، ١٩٧٤ (مترجم للغات الايطالية والاسبانية والبرتغاليه)، الطبعة السابعة ، ١٩٨٣.
* استراتيجية التطوير العربى والنظام الاقتصادى الدولى الجديد، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٧٨.
* الفقر فى ريف العالم الثالث ، مع آخرين (باللغة الانجليزية)، نيودلهى ١٩٨٠.
* الاقتصاد المصرى بين التخلف والتطوير ، دار الجامعات المصرية، الاسكندرية ١٩٨٠.
* استراتيجية الاعتماد على الذات ، نحو منهجية جديدة للتطوير العربى من خلال التصنيع ابتداء من الحاجات الاجتماعية (مع محمد نور الدين ، سلوى العنترى ، غادة الحفناوى) ، منشأة المعارف بالاسكندرية، ١٩٨٠.
* الاقتصاد الرأسمالى الدولى فى أزمته ، منشاة المعارف بالاسكندرية ١٩٨١.
* الاقتصاديات العربية وتحديات الثمانينات ، البترول العربى : نعمة أم نقمة ؟ منشأة المعارف باسلاكندرية ، ١٩٨٢.
* الاتجاه الربعى للاقتصاد المصرى ، ١٩٥٠ - ١٩٨٠ ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، ١٩٨٢.

تحت الطبع :

* السياسة الاقتصادية فى الثمانينات : تصوير الاقتصاد المصرى أم تأكيد للسيطرة الاجنبية ؟
* تطور الاقتصاد المصرى فى ظل الرأسمالية .

تقديـــــم

موضوع دراستنا هو أحد العلوم الاجتماعية، أى أحد العلوم التى تنشغل بالنشاط الانسانى فى المجتمع . ذلك هو علم الاقتصاد السياسى الذى ينشغل بأحد الأنشطـــــة الاجتماعية ، بالنشاط الاقتصادى .

لتكوين فكرة سريعة عن النشاط الاقتصادى يمكنك البدء من الرحلة اليومية التـــى تقطعها منذ الاستيقاظ فى الصباح الى أن تصل الى قاعة الدرس . فلاعداد نفســـك تحتاج الى العديد من المواد التى تستخدمها فى الاغتسال . ولتناول طعام الافطـــار تستعمل أدوات لتجهيزه وتستعمل ادوات اخرى عند تناول الطعام الذى يتكون مـــن مواد غذائية بعضها زراعى وبعضها تم تحويله . ثم انك تستعمل بعض الملابس . وفى الطريق الى قاعة الدرس قد تستعمل احدى وسائل المواصلات . ثم انك تصل الى قاعة الدرس وتجدها قائمة ، ومجهزة بما هو لازم لتلقى العلم . خلال هذه الرحلة تستعمل الكثير من الادوات وتؤدى لك الخدمات ، كخدمة المواصلات وخدمة التعليم .

ابتداء من رحلتك هذه تستطيع ان تتتبع رحلات افراد ومجموعات أخرى فـــــى المجتمع ، انما رحلات تتمثل فى جهود أثمرت الادوات والخدمات التى استعنت بها فى رحلتك اليومية . فابتداء من مادة غذائية تتناولها فى طعام الافطار ، كالخبـــز مثلا ، تستطيع أن تتصور رحلة الخباز الذى قام بتحويل الدقيق الى خبز ، كمـــا تستطيع ان تتصور رحلة الفلاح الذى يمارس سلسلة من العمليات تنتهى بالحصـــول على كمية من القمح . وابتداء من الحلة التى ترتديها تستطيع ان تتصور رحـــلات العديد من الافراد والمجموعات التى قامت بتحويل الصوف الى خيوط ، بصبـــغ الخيوط ، بتحويلها الى نسيج ، بتجهيز هذا النسيج ، ثم بتحويله أخيرا الى حلة . كل هذه رحلات يومية ، ولكنها تثمر ما تقوم انت باستعماله فى رحلتك اليومية . هذه الرحلات انما تمثل نشاطات يقوم بها افراد المجتمع لانتاج ما هو لازم لمعيشتهم وهى تكون فى مجموعها النشاط الاقتصادى . وهو نشاط كما نرى محوره الانتاج وتوزيع

المنتج ، ليس بالنسبة لك فقط وانما بالنسبة للمجتمع ، لا في علاقته بحسب وانما كذلك في علاقاته بالمجتمعات الاخرى المكونة لاجزاء المجتمع العالمي .

هذا النشاط الاقتصادي هو جزء من واقع المجتمع ، جزء من حياته مرتبط تمام الارتباط بالاجزاء الأخرى ، فالفلاح المنتج للقمح (ممارسا بذلك نشاطا اقتصاديا) هو نفس الفرد الذي يمارس نشاطا اجتماعيا في داخل أسرته أو في علاقته بالأسر الأخرى ، هو نفس الفرد الذي يمارس نشاطا سياسيا في حالة انتمائه الى حزب سياسي ، هو نفس الفرد الذي يمارس نشاطا فنيا (ان كان يستطيع ان يعزف الساي مثلا على شاطئ الترعة وهو عائد في العشية) . فالفرد ذاته ، وانما في انتمائه الى فئة أو طبقة اجتماعية ، هو الذي يمارس ، جماعيا مختلف أوجه النشاط الاجتماعي .

هذا النشاط الاقتصادي حاول الانسان ان يكتشف اسراره ، أن يعرفه ، أن يكون أفكارا خاصة به ، بطبيعته ، بالكيفية التي يسير بها ، بنشأته ، وباستمرار ، من فترة لأخرى . وهو في محاولته كشف أسرار النشاط الاقتصادي انما يبذل جهدا آخر يتمثل في نشاط فكري ، نشاط يبذله اتباعا لسبل معينة ، توصله الى هدفه ، الى الأفكار الاقتصادية ، الى النظريات الاقتصادية . هذه النظريات اذا توافرت فيها شروط معينة تكون علمية وتمثل جزءا من العلم ، علم الاقتصاد السياسي ، محل اهتمامنا .

ومن الطبيعي أن تبدأ دراستنا للاقتصاد السياسي بجزء أول يهدف الى تقديم الاقتصاد السياسي كعلم اجتماعي . ويكون هذا التقديم بتعرفه وبالتعرف على علاقته بالعلوم الاجتماعية الاخرى . ولا يكتمل تقديم علم الاقتصاد السياسي الا بالتعرف عليه في تكونه التاريخي . فقد تكون هذا العلم بفضل جهود أعداد كبيرة من المفكرين في مجتمعات مختلفة في أزمنة مختلفة . ومن دراستنا لتاريخ العلم سنرى أنه لا توجد نظرية اقتصادية تفسر النشاط الاقتصادي لكل

المجتمعات ولكل الأزمنه ، وذلك لاختلاف الشكل الاجتماعي وقوى الانتاج المستخدمة في النشاط الاقتصادي من مجتمع لآخر ومن فترة تاريخية لأخرى ، أي لاختلاف ما يسمى بطرق (أو اساليب) انتاج المنتجات وتوزيعها بين أفراد المجتمع من تكوين اجتماعي لآخر ومن مرحلة تاريخية لأخرى في تاريخ المجتمع الواحد .

لكي يكتمل تقديم الاقتصاد السياسي اذن كعلم اجتماعي سنقدم :

- في باب اول ، الاقتصاد السياسي كعلم بالحالة التي يوجد عليها في يومنا هذا .
- وفي باب ثان ، تاريخ علم الاقتصاد السياسي ، أي تاريخ عملية تكوين وتطور المعرفة محل دراسة . اذ لكي ينضبط فهمنا لحاضر هذه المعرفة يتعين أن يمتد اهتمامنا ليغطي نشأتها وتطورها في الماضي .
- وفي باب ثالث ، علم الاقتصاد السياسي كعلم طرق الانتاج ، أي علم الأشكال الاجتماعية التاريخية للانتاج والتوزيع.

وقبل أن نتعرض لهذه الأبواب تباعا من المفيد ان نبدي ملاحظة تتعلق بتوجيهات تخص الطريقة التي يمكن اتباعها في دراسة الاقتصاد السياسي. هذه الطريقة تفرضها طبيعة العلم الذي نقوم بدراسته . فهو شأنه في ذلك شأن كل العلوم ، علم تراكمي بمعنى انه يبني نفسه على اساس من نفسه : فالأفكار التي تتبلور وتتحدد في مرحلة أولى تمثل اساس الأفكار التي تتبلور وتتحدد في مرحلة ثانية ، وعلى أساس هذه الأخيرة نبني نظريات أخرى، وهكذا . ازاء ذلك لايكون أمامنا من سبيل الا استيعاب الموضوعات المختلفة موضوعا بعد موضوع دون تخطي أي من النقاط التي نتعرض لها . اذ لا ينجم عن هذا التخطي الا الصعوبات ، نصادفها عندما نحاول في مرحلة تالية دراسة موضوع يرتكز على الموضوع الذي تخطيناه . يتعين اذن أن نستوعب كل فكرة نتعرض لها .

ولكي يمكن أن نستوعب لابد ان نحاول دائما فهم كل فكرة لا ان نحفظها عن ظهر قلب . اذ فيما عدا ما يخص المصطلحات الفنية يمثل الحفظ عن ظهر قلب أقصر

سبيل الى التهلكة في دراسة علم كعلم الاقتصاد السياسي.ولفهم الأفكار لابد من دراستها نقطة بنقطة.فقراءة كتاب في الاقتصاد السياسي كما نقرأ قصة بوليسية لابد وأن تؤدي بنا الى لا شيء.

والدراسة لا تعني دراسة ما يرد بهذا الكتاب أو بغيره ، فحسب ، بل لابد من القراءة والاطلاع والقيام ببعض عمل البحث . وهنا يلزم لمن يريد أن تكون معرفته الاقتصادية معقولة ألا يقتصر على المراجع العربية ، وانما عليه أن يرجع الى المراجع الاجنبية ، لتسهيل ذلك حرصنا على ان نعطي للمصطلحات الاقتصادية مقابلها باللغتين الانجليزية والفرنسية وان نلحق بالكتاب قائمة بالمراجع مقسمة حسب أجزائه .

على أن هدف الدراسة يتعين ألا يقتصر على مجرد الاستيعاب البسيط بل يجب أن يتعداه الى الاستيعاب الناقد . الناقد للمنهج وللأفكار . وللتوصل الى هذا الاستيعاب الناقد لابد أن يكون لنا منهج ناقد يدفع بروحنا الى أن تكون دائما نافذة ويحمينا من وثنية الفكر أيا كان مصدره .

في دراستنا هذه نستخدم في التحليل الاقتصادي بعض الأدوات الفكرية التي تبلورت في مجال فروع أخرى للمعرفة ، اذ نستخدم أدوات رياضية واحصائية كما نستخدم أفكارا ديموجرافية (خاصة بالسكان) . وبخصوص الأدوات الرياضية نسارع بالقول بأن دراسة الاقتصاد السياسي لا تستلزم ممن يقوم بها أن يكون متخصصا في الرياضيات ، فأكثر فروع المعرفة الاقتصادية استخداما للأدوات الرياضية لا يتطلب معرفة رياضية تزيد على تلك التي يتحصل عليها من يتم دراسته الثانوية ، ويكفي لفهم الأفكار الواردة في دراستنا هذه أن تكون لدينا معرفة بعدد من الأدوات الرياضية : فكرة الدالة والعلاقات الدالية ، والمعادلات الآنية والتعبير البياني عنها ، المماس والمشتقة والتعبير البياني عنها ، المصفوفات . كما يلزم أن تكون على دراسة

باللغة الاحصائية العادية . وكلها أدوات يمكن للقارئ أن يسلح نفسه بهـــا بجهده الفردي دون عناء كثير .

محمد تويسندكر

الباب الأول

الاقتصاد السياسي كعلم

يتحدد كل علم بموضوعه (١) ومنهجه (٢) في تفاعلهما العضوي . وتتحدد معالم هذا المنهج وذلك الموضوع انما يتحقق تاريخيا من خلال عملية ذات بعد زمني يتكون في أثنائها العلم كمجموعة من النظريات : فيتبلور موضوعه وترسم مناهجه ويأخذ محتواه (أي الافكار المستخلصة) شكل الصياغة العملية .

والاقتصاد السياسي ، محل اهتمامنا ، لا يمثل استثناءا على ذلك . فهو في حالته الراهنة ، أي في وقت دراستنا هذه ، علم من العلوم الاجتماعية . وحالته الراهنة هذه تمثل نتيجة عملية تاريخية تكون في خلالها موضوع ومنهج العلم ومجموعة الأفكار ، أي النظريات ، المكونة له .

ويوجد الأصل اللغوي لاصطلاح " الاقتصاد السياسي Political Economy "Oikos", politikos في الكلمات الاغريقية économie politique "nomos" التي تعني على التوالي " منزل " ، " اجتماعي "، و" قانون " .

ولم يدخل مكونا هذا الاصطلاح ، أي كلمتي " اقتصاد " و" سياسي " ، في الاستعمال دفعة واحدة . فاصطلاح الاقتصاد يأتينا من ارسطو طاليس ، الذي قصد باستعماله " علم قوانين الاقتصاد المنزلي " أو " قوانين الذمة المالية المنزلية " اي العلم الذي ينشغل بالشئون المالية للمنزل ، ولم يستعمل اصطلاح " الاقتصاد السياسي " الا في بداية القرن السابع عشر ، وهو ما تحقق في فرنسا على يد انطون دي مونكريتان الذي نشر في عام ١٦١٥ كتابا بعنوان " مطول في الاقتصاد

---

(١) Object , Objet .

(٢) Method . Méthode . .

السياسي " قاصدا بصفة " السياسي " أن الأمر يتعلق " بقوانين اقتصاد الدولة" ، أي المجتمع بأكمله ، وليس العائلة وحدها (٢).

وتبع ذلك انتشار استعمال الاصطلاح " الاقتصاد السياسي " للتعبير عن فرع المعرفة النظرية لم يكف منذ ذلك الوقت عن التطور . هذا الفرع هو الذي يسمونه حاليا في العالم الأنجلوسكسوني " الاقتصاد " (٣) Economics .

---

(١) والواقع ان ذلك يمثل الفضل الوحيد لانطوان دي مونكريتيان Antoyne de Montchrétien (اقتصادي فرنسي ، ١٥٧٥ - ١٦٢١) . اما عن كتابه فسان شومبيتر يصفه بأنه " حقير الشأن .. وفاقد لكل اصالة " ص ١٦٨ من كتابه : History of Economic Analysis .

(٢) اما في انجلترا فقد بدأ استخدام اصطلاح " الاقتصاد السياسي " تحت التأثير الفرنسي . فقد استعمل W.Petty (١٦٢٣ - ١٦٨٧) هذا الاصطلاح وان لم يكن قد عنون به أيا من كتبه في معرض الكلام عن مصدر القيمة يقول بتي أن " هذا لا ينتهي بي الى النظر في أهم مسألة في الاقتصاد السياسي ، أي مسألة اقامة معادلة او مساواة بين الأرض والعمل " . انظر ذلك في كتابه " Political Anatomy of Irland ص ٢٠٤ ، وكان جيمس ستيوارت James Stewart أول من استخدم الاصطلاح في انجلترا في عنونة كتابه الذي ظهر في عام ١٧٦٧ بعنوان " بحث في مبادئ الاقتصاد السياسي " . انظر شومبيتر ، المرجع السابق الاشارة اليه . ص ١٧٦ . واستعمل كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) نفس الاصطلاح في كتاباته ، ويستعمله الاقتصاديون الماركسيون الى الآن . انظر على سبيل المثال : M,Dobb , Political Economy and Capitalism , Routledge and K . Paul , London,1940.

(٣) منذ ان عنون الفريد مرشال Alfred Marshall (وهو اقتصادي اكاديمي انجليزي ، ١٨٤٢ - ١٩٢٤) كتابا اصدره في ١٨٩٠ بمبادئ الاقتصاد Principles of Economics ، بدا اصطلاح " الاقتصاد " Economics ينتشر في البلدان الانجلوسكسونية ليحل محل اصطلاح الاقتصاد السياسي الذي ظل يستعمل حتى ويليام استانلي جيفونس W.S. Jevons (اقتصادي انجليزي ، ١٨٣٥ - ١٨٨٢) الذي عنون كتابه الذي نشر في ١٨٧١ بنظرية الاقتصاد السياسي The Theory of Political Economy انظر شومبيتر ، تاريخ التحليل الاقتصادي ، ص ٢١ - ٢٢ ، وكذلك أوسكار لانج الاقتصاد ==

هذا فيما يتعلق بالأصل اللغوى لاصطلاح " الاقتصاد السياسى " فضلا عن تعريف الاقتصاد السياسى من الناحية الابستمولوجية ؟ من وجهة النظر هذه يمكن تعريف الاقتصاد السياسى بأنه علم القوانين التى تحكم العلاقات الاقتصادية أو

= ص ١٥ ، ١٦ .

الآن وبعد ما يزيد على نصف قرن بدأ هذا الاصطلاح L'Economique فى الانتشار فى فرنسا .

ويرى روبرتسون D.H.Robertson (وهو اقتصادى اكاديمى انجليزى معاصر) ان الاصطلاح الجديد Ecomomics يأتينا بشيئين جديدين :

- ان النهاية ics تشير الى ان دراستنا تأمل فى أن تكون علما مثل الطبيعة Physics والديناميكا .... الخ .

- أن عدم استعمال صفة " السياسى Politicel " توضح لنا أننا نهتم أساسى النهاية بالفرد وليس بالدولة . انظر ص ١٦ من الجزء الأول من " محاضرات فى المبادئ الاقتصادية Lectures on Economic Principles " حيث يرى أن موضوع علم الاقتصاد السياسى يتعلق بكل نشاط اقتصادى للمجتمع ، سواء أكان نشاطا فرديا أم عاما .

والواقع ان أى فرع من فروع المعرفة يكتسب الصبغة العلمية لا بما نريده له ولا بما يوضع فى نهاية الاصطلاح المعبر عنه ، وانما هو يكتسب هذه الصبغة بعلمية المنهج الذى يستخدم فى استخلاص المعرفة المتعلقة بالظواهر محل الاهتمام .

(٤) يرجع ادخال اصطلاح الابستمولوجيا Epistemology, Epistemologie الى الفيلسوف الاسكتلندى J.F. Ferrier فى كتابه Institutes Metaphysies (١٨٥٤)، حيث قسم الفلسفة لى :

- الاونتولوجى Ontology (أو الفلسفة الاولى عند ارسطوطاليس) قاصدا بها فلسفة الوجود بصفة عامة (يرجع استخدام اصطلاح Ontology الى الفيلسوف الالمانى Rudolf Goclenius ، ١٦١٣).

- والابستمولوجيا ، أو نظرية المعرفة ، الخاصة بقدرة الانسان على معرفة الواقع وبمصادر ومناهج وأشكال هذه المعرفة . فى هذا التقسيم نتمثل نقطة البدء لنظرية المعرفة (الابستمولوجيا) فى الموقف الذى يتخذه الباحث من القضية الأساسية فى الفلسفة ، أى قضية العلاقة بين الوعى والوجود ، بين الفكر والمادة ، أولا فيما يتعلق بأولوية أحدهما على الآخر ، وثانيا بالنسبة =

العلاقات الاجتماعية التي تنشأ بين افراد المجتمع بوساطة الأشياء المادية والخدمات وهي العلاقات التي تتعلق بانتاج وتوزيع الأشياء المادية والخدمات التي تشبع حاجات الانسان في المجتمع ، أي اللازمة لمعيشة افراد المجتمع ، معيشتهم الماديـــــــــة

= لكيفية ربط معرفة الكون بالكون نفسه .

يتضح من هذا التقسيم ان اصطلاح الابستمولوجيا يرادف اصطلاح " نظريـــة المعرفة" ، وهو ما ظل سائدا في الفكر الانجليزي .

أما في الفكر الفرنسي ، حيث لم يستخدم الاصطلاح الا في مرحلة لاحقـــة ، فالاتجاه السائد هو نحو التمييز بين اصطلاح (الابستمولوجيا) الذي يقصد بـه اعطاء " فلسفة العلوم" معنى اكثر انضباطا ، وبين " نظرية المعرفـــــة " فلفلسفة العلوم موضوع اساسي : متى تصبح المعرفة والنظرية علما ؟ أي البحث في شروط نشأة العلوم وتطورها والابستمولوجيا يعبر بها عن فلسفـة العلوم هذه وانما بمعنى اكثر انضباطا ، فلا يقصد بها الدراسة القاصرة علـى المناهج العلمية ، ولا تلك التي لا تعدو الدراسة التركيبية للقوانين العلمية وانما الدراسة الناقدة لمبادىء واقتراضات ونتائج العلم المختلفة ، دراســـة تهدف الى تحديد أصلها المنطقي وقيمتها واهميتها الموضوعية (عليه يكون موضوع الابستمولوجيا هو المعرفة النظرية المكونة لمختلف العلوم بمختلف موضوعاتها) .

اما نظرية المعرفة فهي دراسة للعلاقة بين من يستخلص المعرفـة The Subject ; le sujet وموضوع المعرفة The Object l'object . العلاقة بينهما في عملية استخلاص المعرفة مما يمكننا من التعرف على طبيعة المعرفة الانسانية ، على ميكانزم استخلاصها ، وعلـى أهميتها وحدودها . على هذا النحو يتم التمييز بين الابستمولوجيا ونظريـة المعرفة وتمثل الاولى بالنسبة للثانية المقدمة والمساعد الذي لا غنى عنهما حيث أنها تدرس المعرفة دراسة تفصيلية وبعد ان يتم استخلاصهـــــــــا a Posteriori انظر في ذلك :

- A.Lalande ,Vocabulaire technique et critique de la philosophie,P,U.F.1962 p. 2930 294.
- G.Bachelard , La formation de l'esprit scientifique Librairie Philosophique J.Vrin,Paris,1967 .

=

والثقافية (٥) .

لكي يكتمل تعريفنا هذا ، ومن ثم يصبح أكثر وضوحا ، يتعين علينا :

اولا - ان نحدد موضوع الاقتصاد السياسي ، أي مجموع الظواهر التي يمكن ملاحظتها والتي تمثل المعرفة المتعلقة بها موضوع البحث الاقتصادي .

- ان نبرز ثانيا المناهج المستخدمة في اكتساب المعرفة، أي الطرق المحـــــددة التي نتبع بانتظام للوصول الى أهداف البحث الاقتصادي (٦).

- P. Bourdieu et autres , le Métier de Sociologue . == livre,1 Mouton & Bordas ,Paris,1969,P,25-31.
M,Rosenthal & P.Yudin(eds),a. ictionary of Philosophy, progress publishers. Moscow,1967,p, 144.

(٥) يعرف الفريد مارشال الاقتصاد بأنه" دراسة للبشرية في شئون حياتها العادية" فهو "يفحص ذلك الجزء من النشاط الفردي والاجتماعي الذي يكرس لتحقيـــق واستخدام الشروط المادية للرفاهة" ص١ من كتابه "مبادئ الاقتصاد" ، ولا يجد روبرتسون هذا التعريف منضبطا وان كان يلقي الضوء على اننا نهتـــم بالانسان ونهتم به فيما يتعلق بالبعض فقط من العديد من المشكلات التـي يواجهها . انظر مرجعه السابق الاشارة اليه ص١٧ .
أما وفقا لتعريف : L.Robbins, An Eassay on the Nature & Significance of Economics Science P , 15 .
فالاقتصاد هو العلم الذي يدرس السلوك الانساني كعلاقة بين الاهداف والوسائل النادرة ذات الاستخدامات البديلة " . وهذا التعريف يتصور الاقتصـــــاد السياسي كعلم يهتم بالعلاقات بين الانسان والاشياء وليس بالعلاقـــــات الاجتماعية " ، انظر :
P. Sweezy , The Theory of Capitalist Development . P.3

(٦) الفصل بين الموضوع والمنهج لا يبرره الا عدم امكانية تقديم الاثنين معا وفي نفس الوقت . فالواقع انهما لا ينفصلان ، كما سنرى بعد دراسة كـــــل منهما .

- وأن نبين ثالثا علاقة الاقتصاد السياسي بغيره من العلوم الاجتماعية .

تعريفنا للاقتصاد السياسي لا يكتمل اذن ، ولا ينضبط الا اذا عالجنا هـــــذه الموضوعات الثلاث . وهو ما سنقوم به في الفصول الثلاثة المكونة لهـــــذا الباب .

الفصل الأول

موضوع الاقتصاد السياسي

موضوع الاقتصاد السياسي هو المعرفة المتعلقة بمجموع الظواهر المكونة للنشاط الاقتصادي للانسان في المجتمع ، أي النشاط الخاص بانتاج وتوزيع المنتجات والخدمات اللازمة لمعيشة افراد المجتمع . هذا النشاط يتبدى في شكل علاقة مزدوجة : علاقة بين الانسان والطبيعة وعلاقة بين الانسان والانسان . لنسرى هذه العلاقة المزدوجة بشيء من التفصيل .

عملية الانتاج كعلاقة بين الانسان والطبيعة :

من أميز مايفرق الانسان عن غيره من الكائنات أنه كائن يجد نفسه في موقف مواجهة للطبيعة . فالكائنات الأخرى تمثل جزءا من الطبيعة مستكينة لها تعيش على ما تعطيه وتنقرض ان لم تعطها واذا ماشذت في أن تكيف نفسها وفقا للظروف الطبيعية في تغيرها المستمر . اما الانسان **فكائن مضاد للطبيعة** (١) لا يستكين لها ولا يعتمد عليها بلا تفاعل من جانبه .

والانسان ككائن مضاد للطبيعة له حاجات (٢) لا يمكن اشباعها من ذاته ، وانما لكي يتم ذلك يتعين عليه أن يتوجه الى الطبيعة . للانسان حاجات تدفعه الى الحركة في عالمه الخارجي لاشباعها . فهي حاجات موجهة تمثل في الانسان أصل كل حركة أو ديناميزم .

---

(١) Opposed to Nature: opposé à la Nature .

(٢) Wants, besoins الحاجة اقتصاديا هو شعور بحرمان ووعي بوسيلة القضاء عليه وسعي لتحقيق هذه الوسيلة .

لاشباع هذه الحاجات يضطر الانسان الى بذل جهده ، قواه ، في سبيل الحصول من الطبيعة ، بحالتها الطبيعية او بعد تحويلها ، على ما يشبع حاجاته، ما يحفظ وجوده . فدوره في مواجهة الطبيعة ليس سلبيا ان هي أعطته عاش وان بخلت عليه مات ، بل هو يبذل جهدا مستمرا يقصد منه السيطرة على قوى الطبيعة وجعلها اكثر ملاءمة لحياته (٢).

المجهود الذي يبذله الانسان يختلف عن مجهود الكائنات الاخرى في أنه مجهود واع . أي عمل . فالانسان كائن مفكر . فهو يعي تضاده مع الطبيعة ، تضاد يتبلور عند العمل . اذ هو لا يأخذها كما هي وانما يعمل عليها ليجعل منها المشبع لحاجاته . وهو واع عندما يقوم ببذل جهده ، بعمله ، اذ هو يتصور مقدما النتيجة التي سيوصله اليها جهده والكيفية التي يبذل بها هذا الجهد . فهو يدرك مقدما غايته من بذل الجهد ، ويتبع لتحقيق هذه الغاية الوسيلة المناسبة . فالعنكبوت مثلا ينسج نسيجا قد يعجز أمهر نساج عن أن يقوم بمثله . وانما الفرق بين مجهود العنكبوت ومجهود النساج يتمثل في أن الأول يبذل جهده على نحو غريزي دون وعي ، أي دون أي تصور مقدم لما هو مقدم عليه . أما النساج فيتصور مقدما النتيجة التي يراد الوصول اليها : عدد معين من أمتار نسيج معين، له متانة معينة ولون معين ، الى آخر ما يحدد مواصفاته . ثم هو بعد ذلك يتبع الوسيلة المناسبة لتحقيق هذه النتيجة . بذل جهده في ظل شروط معينة من الانتاج استخداما لفن انتاجي معين (عن طريق استخدام النول اليدوي أو النول الآلي مثلا) . كذلك الشخص المقدم على بناء منزل له ، فهو يتصور مقدما الكيفية التي سيكون عليها المنزل :كيفية تقسيم المساحة الى غرف ، عدد الغرف ، مساحة

---

(١) هذا القول يستبعد الحاجات التي تمدنا الطبيعة مباشرة بوسائل اشباعها دون ان يستلزم الامر بذل جهد انساني ، كالهواء اللازم للتنفس مثلا. وسائل اشباع هذه الحاجات لا يهتم بها الاقتصاد السياسي اذ هي ليست موضوعا لجهد انساني .

كل غرفة ، الكيفية التي تتوفر بها الاضاءة والتهوية لكل غرفة ، كيفية اتصال الغرف بعضها ببعض ، عدد طبقات المنزل ، الى غير ذلك. هذا التصور المقدم لنتيجة نشاط البناء الذي سيقوم به قد يسجل على ورق في صورة رسم للمنزل المراد بناؤه . فاذ ما تحدد الهدف بحث الانسان عن الوسيلة او مجموعة الوسائل اللازم اتباعها لبناء المنزل (٤) .

فالانسان اذن لاشباع حاجاته الموجهة - للابقاء على كيانه ووجوده ، في تطورهما - مضطر الى أن يقوم بعمل ، موضوعه الطبيعة - بمختلف صورها - ليستخلص منها ما يشبع هذه الحاجات . أي ينتج المواد اللازمة لبقائه . وهو على هذا النحو يتميز عن الكائنات الاخرى بأنه الكائن الوحيد الذي يقوم بانتاج ما هو لازم لاشباع حاجاته . وهو لا يقوم بذلك مرة واحدة أو مرات تعد وانما بصفة مستمرة متكررة ، فالأمر يتعلق اذا بعملية انتاج مستمرة عبر الزمن (٥).

عندما لا تكفي أعضاؤه وقواه الأولية لاشباع حاجاته المتطورة يستخدم الانسان ما يعتبر امتدادا لأعضائه (٦) ، يقوم باستخدام بعض الأشياء من الطبيعة - أولا كما هي وبعد تحويلها في مرحلة تالية - كامتداد وتمكين لقواه وأطرافه الاصلية . كما اذا استخدم الانسان عصا كامتداد لذراعه ليتمكن من اقتطاف بعض ثمار الاشجار اللازمة لاشباع حاجته الى الطعام . وفي مرحلة ثانية يتوصل الانسان

---

(٤) هذه الخصيصة التي يتميز بها عمل الانسان كمجهود واع يتعين أن نستبقيها في ذاكرتنا اذ ستمثل نقطة البدء في تحديد مفهوم التخطيط على اساس أن الخطة هي عبارة عن تحديد هدف يراد تحقيقه في فترة معينة مستقبلة ثم تحديد الوسيلة او مجموعة الوسائل المحققة لهذا الهدف . في هذا المعنى يقول ارسطوطاليس ان " الانسان حيوان مخطط " :

Man is a planning animal .

(٥) Production process , processus de production .

(٦) Implements .

الى انتاج اشياء تمكنه من انتاج ما يعد امتداد لقواه وأنشطته ، أي أدوات [٧] كقياسه بانتاج اداة حادة يستخدمها في قطع بعض فروع الشجر لتهذيبها واستخدامها كامتداد لذراعه للحصول على ثمار الاشجار ، تلك هي **ادوات العمل** (التي تزداد تنوعا وتعقدا مع تعدد وتطور النشاط الانتاجي للانسان)ينتجها الانسان من الطبيعة لتكمل وتزيد من قواه . فكأنه جعل من الطبيعة بعض قواه . عن طريق استخدامه لهذه الادوات يزيد عمله اتقانا وتزيد سيطرته على قوى الطبيعة . وهو ما يتحقق كذلك بزيادة معرفته لأسرار هذه القوى .

فجوهر عملية الانتاج اذن هو علاقة بين الانسان والطبيعة ، عمل الانسان لتحويل قوى الطبيعة الى ما يمكنه من اشباع حاجاته ، يتم ذلك باستخدام الانسان - في اثناء بذله لمجهوده - لأدوات عمل من صنعه في سبيل تحويل الاشياء موضوع العمل الى منتجات صالحة لاشباع حاجاته . **هذه العملية هي عملية تفاعل نشط** فو تأثير متبادل بين الانسان والطبيعة . عن طريق عمله يحول الانسان قوى الطبيعة، يخضعها لسيطرته فيجعلها أقل بدائية (طبيعية) وأكثر انسانية . في نفس الوقت هو يخلق منها أدوات لانتاجه . ادوات لعمله ، عن طريقها يزيد اتقان عمله ، اتقان مجهودة الواعي . فكأنه خلق بذلك من الطبيعة شيئا منه هو ، فتحويل الطبيعة تحويل لنفسه ، لامكانياته ، وتوسيع لآفاقه في توسيعه لهذه الآفاق يصطدم بقوى طبيعية جديدة بعمل دائما لاخضاعها لتمكنه من اشباع حاجاته التي تصبح بدورها متطورة ومتغيرة . **وهكذا فالعلاقة بين الانسان والطبيعة مثيرة** للتغير والحركة .

عملية الانتاج كعلاقة بين الانسان والانسان

غير ان الانسان لا يقوم بصراعه هذا مع الطبيعة ، لا يعيش هذا التفاعل

---

(٧) Tooks : a tool is an implement for making implements .

ومن هنا جاء تعريف بعض المفكرين للانسان كحيوان يصنع الادوات :
man is a tool-making animal وهو التعريف الذي اعطاه F.Franklin المفكر الامريكي ، ١٧٠٦ - ١٧٩٠ .

المتبادل ، وحده ، بل في جماعة ، في مجتمع ، فالانسان حيوان اجتماعي (٨) . فهو لا يستطيع في الواقع ان يحفظ وجوده الا من خلال عمل الآخرين ، فأفراد المجتمع يكمل أحدهم الآخر . ومن ثم نجد أن عملية الانتاج هي بطبيعتها عملية اجتماعية عملية العمل الاجتماعي في محاولته المستمرة للحصول من الطبيعة على المواد اللازمة لاشباع حاجات الجماعة وأفرادها . عمل افراد الجماعة كل من الآخر يمثل التعاون بينهم ، وعمل كل منهم للآخر يتم في صورة تقسيم العمل (٩) الذي بفضله يتخصص الافراد في انواع معينة من العمل .

فيما عدا التقسيم البدائي للعمل بين الجنسين (عمل المرأة في مكان الاقامة وعمل الرجل في النشاطات التي تستلزم البعد عن هذا المكان) والذي يمكن التعرف عليه في كل مراحل التطور الاقتصادي للبشرية ، تقسيم العمل رهين بتحقيق مستوى معين من تطور القوى الانتاجية (بما يتبع ذلك من معرفة فنية) ، أي مستوى معين من انتاجية العمل يمكنه من خلق فائض في المواد الاستهلاكية يسمح لبعض أفراد الجماعة بالتخصص في القيام ببعض النشاطات الاقتصادية كل الوقت وعلى سبيل الاستقلال (١٠) .

---

(٨) Man is a Social animal ; l'homme est un animal social.

(٩) Division of Labour ; division de travail .

(١٠) في جماعة تعيش على جمع الثمار مثلا يكرس كل وقت اعضاء الجماعة لضمان الحصول على ما هو لازم لابقائهم على قيد الحياة . وقد لا تنجح الجماعة حتى بعملها كل الوقت في ضمان ذلك . في هذه الحالة لايكون في وسع من يتمتع بموهبة خاصة في انتاج ناتج معين (وليكن أداة صيد مثلا) ان يخصص وقتا لتنمية هذه الموهبة ، اذ كل وقته لازم للحصول على وسائل المعيشة لمولبقية افراد الجماعة . اما اذا استطاعت الجماعة ، بفضل اكتشاف النشاط الزراعي مثلا ، أن تنتج في خلال ستة شهور كمية من المواد تكفي لاستهلاكها طوال سنة كاملة استطاع من يتمتع من افرادها بموهبة خاصة (في انتاج أداة زراعية مثلا) ان ينمي هذه الموهبة خلال الستة شهور التي لا يباشر فيها افراد الجماعة نشاطهم الزراعي =

يترتب على قيام عملية الانتاج على التعاون بين افراد الجماعة وعلى تقسيم العمل بينهم ، أن عمل كل فرد ليس الا جزء من العمل المشترك لكل افراد الجماعة فهو جزء من العمل الاجتماعي . ومع اضطراد نمو اقتصاد الجماعة الذي يصاحب الاتساع المستمر في حجم الجماعة (العائلة ، القبيلة ، الامة .....الخ) وتعقيد تركيب هذا الاقتصاد تزيد درجة تقسيم العمل بين افراد الجماعة مع مايتبعه ذلك من

== في حالة هذه الجماعة الاخيرة نستطيع ان نتصور ان يتخصص عدد من افراد الجماعة في العمل الزراعي طوال السنة (اذا ما سمحت الظروف المناخية بذلك بطبيعة الحال) منتجين بذلك مواد استهلاكية لكل افراد الجماعة ، الامر الذي يعطي العدد الاخر من افرادها فرصة التخصص في انتاج الادوات الزراعية كل وقتهم . هنا يقال ان مستوى انتاجية العمل الزراعي يسمح بتحقيق فائض من المواد الغذائية يمثل وجوده الشرط اللازم للتقسيم الاجتماعي للعمل .

وقد تعددت مظاهر تقسيم العمل مع تطور النشاط الاقتصادي للانسان ، فيمكن تمييز :

- تقسيم العمل بين الجنسين .
- تقسيم العمل بين عمل يدوي وعمل ذهني .
- تقسيم العمل وفقا لطبيعة النشاط الاقتصادي بين عمل زراعي وعمل صناعي وعمل في الخدمات .
- تقسيم العمل في داخل الوحدة الانتاجية ، وعلى الاخص ابتداء من المشروع الرأسمالي .
- التقسيم الدولي للعمل الذي يتمثل في تخصص بين المجتمعات - كاعضاء للمجتمع العالمي - في بعض انواع النشاط الاقتصادي . نمط تقسيم العمل الدولي - شأنه شأن اي ظاهرة اجتماعية - لا يمكن ان يكون ثابتا لا يتغير ، اذ لابد ان يتغير مع تطور الاقتصاديات المكونة للاقتصاد العالمي . هذه المظاهر المختلفة لتقسيم العمل تتاح لنا فرصة التعرف عليها من قرب كلما تقدمنا في الدراسات الاقتصادية ، انظر في هذه المظاهر :

M.Weber.The Theory of Social and Economic Organisation, Translated by A.M.Henderson & T.Parsons.The Free Press Glencoe ,Illinois , 1947,p.218 ff.

تعقد في علاقات الاعتماد المتبادل بين الاجزاء المختلفة للعمل الاجتماعي المماثلة لمختلف النشاطات الاقتصادية .

على هذا النحو يتبين ان الانتاج لا يتشمل فقط في العلاقة بين الانسان والطبيعة وانما هو في ذات الوقت علاقة بين الانسان والانسان . الامر هنا يتعلق بمجموعة العلاقات بين افراد المجتمع في صراعهم مع الطبيعة ، في العلاقات المتعددة التي تنشأ بينهم مماثلة العلاقات الاقتصادية ، أي العلاقات الاجتماعية التي تتم بوساطة الاشياء المادية والخدمات . ومن ثم يمكن القول ان العملية الاقتصادية هي عملية انتاج وتوزيع الناتج الاجتماعي (مجموع السلع والخدمات المنتجة) في دورانها حول العمل الاجتماعي حول المجهود الواعي الذي تقوم به الجماعة بقصد ان تستخلص من الطبيعة المواد الصالحة لاشباع الحاجات مستعينة في ذلك بأدوات الانتاج وبخبرتها الفنية في تراكمها المستمر . الغاية النهائية في هذه العملية هو اشباع الحاجات عن طريق بذل المجهود الذي يتبلور في منتجات قابلة لاشباع تلك الحاجات .

واختصارا يمكن القول ان شروط عملية الانتاج ، أيا كان نوع المجتمع الذي تمارس فيه ، تتمثل في :

- القوة العاملة[١١] اي مجموع الافراد الذين يسهمون في النشاط الاقتصادي مزودين بخبرة فنية مكتسبة من خلال التجربة الاجتماعية ، ومتوارثة عبر الاجيال .
- ادوات العمل[١٢] التي تزيد من القدرة المنتجة للقوة العاملة أي من انتاجية العمل (مثال ذلك الآلة التي يستخدمها العامل المنتج للمنسوجات).
- موضوع العمل[١٣] ، أي المواد التي يجري تحويلها بواسطة العمل مستخدما

---

(١١) Labour force ; force de travail

(١٢) Instruments of labour , instruments de travail .

(١٣) Object of labour , objet de travail .

لأدوات العمل (مثال ذلك الخيوط والقوة المحركة المستخدمة في انتاج المنسوجات)

وتمثلهاتان الاخيرتان ، ادوات العمل والمواد موضوع العمل ، ما يسمى اصطلاحا بوسائل الانتاج (١٤) .

تلك هي شروط عملية الانتاج بصرف النظر عن الشكل الاجتماعي الذي تأخذه ، التي تهدف في نهاية الامر الى اشباع حاجات افراد المجتمع .

غير ان مزيد من التدقيق يبين لنا ان هدف النشاط الاقتصادي لم يكن في مختلف مراحل تطوره الاشباع المباشر لحاجات من يقومون بالانتاج .

من وجهة النظر هذه يمكن أن نميز نظريا بين نوعين من الانتاج يعرفهما تاريخ النشاط الاقتصادي للانسان . الانتاج بقصد الاشباع المباشر لحاجات المنتجين (أو ما يسمى احيانا بالانتاج الطبيعي) (١٥) وانتاج المبادلة (١٦) اوالانتاج السلعي (١٧).

---

(١٤) Means of production , moyens de production .
من هذا نرى ان المجتمع يستخدم في اثناء العملية الاقتصادية الموارد الموجودة تحت تصرفه : وذلك بقصد اشباع حاجات افراده . وقد جرت العادة بين الاقتصاديين على تقسيم هذه الموارد الى طوائف ثلاثة :
- الموارد البشرية human resources;ressources humaines, اى القوة العاملة بقدراتها الجسمانية والذهنية ، بمعرفتها وبتكوينها الفني هذه الموارد عادةتسمى بالعمل labour,travail ونحن لا نعتبر القوة العاملة من قبيل الموارد أذهي المحرك الرئيسي لكل العملية الانتاجية
- هبات الطبيعة ، الارض ، المراعي ، الغابات ، البحار ، ما يحتضه باطن الارض الظروف المناخية ، التضاريس المواتية ، الى غير ذلك مما يسمى بالموارد الطبيعية ، أو بالطبيعة

Natural resources , ressources naturelles,Nature ,

(١٥) Subsistence production (natural)production:production de biens de subsistance(production naturelle) .

(١٦) Exchange production,production pour l'échange .

(١٧) Commodity production ;production marchande .

في مرحلة تاريخية [١٨] أولى كان الانتاج يقوم بقصد الاشباع المباشر للحاجات الانسانية في داخل الوحدة الانتاجية (عائلة ، قبيلة ، أو حتى مجتمع أكبر) مثال ذلك الانتاج الزراعي الذي تقوم به عائلة فلاح لاشباع حاجاتها . في هذه المرحلة كان الانتاج والمنتج [١٩] - العمل ونتاج العمل - متلازمين في الواقع وفي ضمير ووعي المنتجين . كان المنتج يعيش على نتاج عمله ، يعيش على المنتجات . هذا يتحقق البعد الاقتصادية ، التي اشير انطلاقها بحاجات المنتجين ، بانتاج منتجات ووضعها تحت تصرف المنتجين انفسهم لكي يتم استهلاكها او استخدامها في عملية انتاج جديدة بواسطتهم .

في مرحلة تالية مرتبطة بوجود فائض اقتصادي [٢٠] أي بقدرة المنتجين على انتاج ما يزيد على ما هو لازم لاشباع حاجاتهم في ظل الظروف الفنية والاجتماعية للانتاج (ووجود هذا الفائض يتوقف على بلوغ مستوى معين من تطور قوى الانتاج ، من انتاجية العمل) ظهر الانتاج بقصد المبادلة . ظهر اول ما ظهر عند وجود حرفيين يقومون ببعض الحرف الى جانب الانتاج الزراعي او يقومون بحرفهم كل الوقت (هذا مشروط بانتاج فائض زراعي يعيش عليه من يعملون في الحرف الصناعية . هنا بدأ

---

(١٨) الكلام عن مراحل تاريخية متعددة لا يعني امكان وضع حد فاصل بينها وانما يعني غلبة ظاهرة معينة او مجموعة معينة من الظواهر تعطي لمرحلة معينة خصائصها الجوهرية . وسيادة نوع معين من الانتاج في مرحلة تاريخية لا يعني غياب انواع الانتاج السابقة عليه عن تلك المرحلة . ففي ظل الانتاج الرأسمالي - وهو الشكل الاكثر عمومية لاقتصاد المبادلة ، كما سنرى فيما بعد - نجد وحدات انتاجية يتم فيها الانتاج بقصد الاشباع المباشر حتى في اكثر المجتمعات الرأسمالية تقدما من الناحية الاقتصادية . هذا القول يصدق على التكوينات الاجتماعية المختلفة . (انظر الباب الثالث من هذا الجزء الاول) .

(١٩) Product ; produit .

(٢٠) سنتناول فكرة الفائض الاقتصادي بدراسة تجعلها اكثر انضباطا فيما بعد .

... يعيش لا على ناتج عمله وانما على عمله الذي يكرسه لانتاج السلع (٢١) . أي المنتجات الموجهة للمبادلة المباشرة (أي المقايضة) (٢٢) في مرحلة أولى ثم ... بالنقود (٢٣) في مرحلة ثانية . عن طريق المبادلة يستطيع المنتج ... من ناتج العمل اللازمة لاستهلاكه . فانتاج المبادلة يفترض اذن :

- ... هناك تقسيما اجتماعيا للعمل .
- أن الانتاج يقوم به الافراد على وجه الاستقلال
- أن الانتاج يستهدف المبادلة
- ان المنتج - الذي يصنع سلعة - يكون نافعا للآخرين ، اي يمثل قيمة استعمال اجتماعية (٢٤) .

---

(٢١) على هذا النحو يتضح الفرق بين المنتج والسلعة Commodity, marchandise فالسلع هي دائما منتجات ولكنها منتجات انتجت للمبادلة اما المنتجات فليست سلعا دائما . هذا ويراعى انه اذا كان المنتج يتخلى عن جزء من انتاجه عن غير طريق المبادلة (كما في حالة الفلاح الذي تلزمه علاقته الاقتصادية بأن يتخلى عن جزء من المنتجات عينا) فان الانتاج لا يعتبر انتاج مبادلة وانما هو انتاج لاشباع الحاجات اشباعا مباشرا .

(٢٢) Barter , troc .

(٢٣) Money , monnaie .

(٢٤) Use-Value ; Valeur d'usage هذا ويفرق في انتاج المبادلة بين انتاج المبادلة البسيط او الصغير Simple commodity production; petite production marchande وانتاج المبادلة الرأسمالي . في الاول يقوم المنتج (الذي عادة ما يمثل وحدة انتاجية صغيرة تمتلك وسائل انتاج محدودة) بصنع السلع التي ينتجها في السوق ويستخدم الايراد المتحصل من بيعها لشراء سلع يقوم هو باستعمالها اما في اشباع حاجاته النهائية (في الاستهلاك) أو في الانتاج . هذا تتمثل عملية المبادلة في التخلي عن سلعة في مقابل النقود ثم التخلي عن النقود في مقابل سلعة أخرى او ما يعبر عنه : سلعة - نقود - سلعة . اما انتاج المبادلة الرأسمالي فيتم من خلال دورة راس المال المنتج التي تتم عبر مراحل ثلاث : في مرحلة اولى يقوم الرأسمالي باستخدام رأس المال النقدي في شراء السلع على العمل ووسائل الانتاج . في المرحلة الثانية ، مرحلة ...

أيا ماكان الامر فلعملية الانتاج ، سواء أكان الانتاج بقصد الاشباع المباشر لحاجات المنتجين اوكان انتاج مبادلة بشروط تتمثل في القوة العاملة ذات التكوين الفني المعين وفي توفر وسائل الانتاج . هذه القوة العاملة تعمل في جو من المعرفة التكنولوجية يستلزم منها تأهيلا ومعرفة فنية تتفق ونوع ومستوى ادوات العمل التي تستخدمها ، وبصفة اعم نوع ومستوى وسائل الانتاج . هذه القوة العاملة التي تعمل في وسط تكنولوجي معين ووسائل الانتاج التي تستخدمها تمثل اصطلاحا ما يسمى **بقوى الانتاج** (٢٥) الموجودة في المجتمع ، وقد سبق ان رأينا أن عملية الانتاج تتمثل في الصراع الجماعي لافراد المجتمع ضد قوى الطبيعة ، فتنشأ بينهم **علاقات انتاج** او روابط ، **هي روابط اجتماعية** اذ تثور بين افراد المجتمع (أو فئاته او طبقاته) . وهي اقتصادية اذ تتم بوساطة الاشياء المادية والخدمات . وتتم في اثناء الانتاج بوساطة وسائل الانتاج . فهي الروابط التي تحدد موقف كل فرد (أو فئة او طبقة) في مواجهة الاخر ازاء وسائل الانتاج (ما اذا كان مسيطرا عليها بفضل الملكية او مبعدا عنها) . وهذه الروابط تتوافق هي الاخرى مع مستوى تطور قوى الانتاج الموجودة في المجتمع ، التي تكون معها شكلا اجتماعيا لعملية الانتاج (والتوزيع) يميز مرحلة معينة من مراحل تطور المجتمع الانساني . بمعنى آخر يلتحم مستوى معين لتطور قوى الانتاج مع نمط معين لروابط الانتاج ليكونا شكلا اجتماعيا متميزا للانتاج يسود المجتمع خلال حقبة من حقبات التاريخ ، هذا الشكل المعين هو الذي يسمى بطريقة **الانتاج او بأسلوب الانتاج** .

= الانتاج، تستخدم هذه السلع المشتراه لانتاج السلعة التي يقوم الرأسمالي بانتاجها . وفي مرحلة ثالثة يسعى الى بيعها في السوق ليحصل على المقابل النقدي الذي يتضمن الربح . وعليه يكون رأس المال النقدي الذي يحصل عليه في المرحلة الثالثة اكبر من راس المال النقدي الذي تخلى عنه في المرحلة الاولى هنا تتمثل عملية المبادلة في التخلي عن النقود في مقابل سلع ، ثم التخلي عن السلع في مقابل النقود : نقود - سلعة - نقود (اكبر) .

(٢٥) Prlductive Forces; Forces Productives .

... في الانتاج المختلفة ستكون محلا لدراستنا التفصيلية في الباب الثالث من هذا الجزء الاول . ولكن المهم الآن ان نعي ان العملية الاقتصادية (عملية الانتاج والتوزيع) لا تعرض بنفس الاسلوب في المراحل التاريخية المختلفة لتطور المجتمع الانساني بل هي تأخذ اشكالا اجتماعية مختلفة . وعليه يتضح تعريفنا للعملية الاقتصادية بالكلام عن الاشكال الاجتماعية المختلفة لهذه العملية . اشكال تتحدد بنوع اسلوب الانتاج السائد (من حيث نمط روابط الانتاج ومستوى تطور قوى الانتاج) كما تتحدد بنوع الانتاج من حيث ما اذا كان طبيعيا او انتاج مبادلة .

بتعريفنا للعملية الاقتصادية ، عملية النشاط الانتاجي والتوزيع في اشكالها الاجتماعية المختلفة يتحدد لنا موضوع علم الاقتصاد السياسي . هذا الموضوع هو الافكار المتعلقة بالقوانين الاجتماعية التي تحكم مجموع الظواهر التي يمكن ملاحظتها والتي تكون النشاط الاقتصادي في المجتمع ، وهو نشاط يأخذ شكل عملية ذات بعد زمني ومتكرر عبر الزمن : هذه هي القوانين الاقتصادية . اي العلاقات التي تتكرر باستمرار بين عناصر العملية الاقتصادية ، القوانين الاجتماعية الخاصة بانتاج المنتجات وبالكيفية التي تجد بها هذه المنتجات سبيلها الى ايدي الافراد يستخدمونها لاشباع حاجاتهم . وهو ما يحدث بأشكال تختلف من مرحلة الى اخرى من مراحل تطور المجتمع الانساني .

على هذا النحو يتحقق لنا تحديد معالم موضوع الاقتصاد السياسي . ولكن تعريف الموضوع ، رغم ضرورته ، لا يكفي لتعريف العلم ، اذ يلزم علينا ان نحدد كذلك معالم منهجه في ارتباطه العضوي بهذا الموضوع ، اي الطرق المستخدمة في البحث عن المعرفة الاقتصادية .

الفصل الثاني

منهج الاقتصاد السياسي (١)

يراد بمنهج البحث ، في أي فرع من فروع المعرفة البشرية، الطريقة التي يتبعها العقل في دراسته لموضوع ما ، للتوصل الى قانون عام ، أو هو فن ترتيب الأفكار ترتيبا دقيقا بحيث يؤدي الى كشف حقيقةمجهولة ، أو البرهنة على صحة حقيقةمعلومة . فالمنهج اذن هو مجموعة الخطوات التي يتخذها الذهن بهدف استخلاص المعرفة . نحن هنا بصدد تتابع في المراحل . أي سبيل يسلكهالعقل الى المعرفة . هذا السبيل الذهني لا يمثل مجرد خط سير ، اذ يصطحب خط السير هذا تنظيم فكري Organsiation conceptuelle وعليه يتميز المنهج أساسا بطبيعة الافكار concepts التي تعرض . ومن هنا كان ارتباط المنهج بالموضوع ارتباطا عضويا ، اي تفاعله معالموضوع ، الذي هو موضوع المعرفة ، أي مجموعة من الافكار Concepts (اذ رغم ان المعرفة العلمية تتعلق بالواقع - الطبيعي أو الاجتماعي - الا انها لا تبدأ الا من تصويرات ذهنية خاصة بهذا الواقع) .

وبصفة عامةلا تختلف الطرق المستخدمة في استخلاص المعرفة الاقتصادية عن طرق البحث العلمي ، وعليه نتعرف على طرق استخلاص المعرفة الاقتصادية هذه بالكلام عن الاقتصاد السياسي كعلماذ تحدثنا حتى الآن عن الاقتصاد السياسي كعلم القوانين التي تحكم العملية الاقتصادية . فهل هو حقيقة من قبيل العلم ؟

للاجابة عن هذا السؤال :

- سنبين أولا الشروط الواجب توافرها لامكانية الكلام عن علم ، وفي هذا المجال تتاح لنا فرصة التعرف على منهج البحث العلمي بصفة عامة .

---

(١) The Method of political economy; La Méthode de l'économie politique .

- الجزائري ، ثانيا ، ما اذا كانت هذه الشروط تتحقق بالنسبة للاقتصاد السياسي
[illegible] في الجواب بالايجاب امكننا الاستمرار في طرح صفة العلم على الاقتصاد السياسي
وهو ما لا نستطيع فعله ان كان الجواب بالسلب ،

١ - ما هو العلم ؟

بالرجوع الى فلسفة العلم (٢) واستخداما للاصطلاح بمعنى عام يقصد بالعلم مجموع المعرفة الانسانية المنظمة المتعلقة بالطبيعة وبالمجتمع وبالفكر ، والمستخلصة عن طريق اكتشاف القوانين الموضوعية التي تحكم الظواهر الحسية، وذلك استخداما لمنهج البحث العلمي ، وهي معرفة تقصد الى تفسير هذه الظواهر تفسيرا علميا (٣). اما اذا اخذنا احد فروع العلوم المختلفة فيقصد به " مجموع المعرفة المنظمة المتعلقة بطائفة من الظواهر " . ما الذي يمكن استخلاصه من هذه التعاريف

---

(١) انظر في الموضوع :

A.Danno & S.Morgenbesser (eds),A Philosophy of Science O Meridan Books . New York 1960 .

M.Cornforth , Theory of Knowledge , Lawrence and Wishart, London , 1956 .

Ph. Frank,Philosophy of Science,Prentice - Hall Inc.Englewood Cliffs . N.Y. 1962 .

L.Goldman , Sciences humaines et philosophie,P.U.F.,1952.

L.W.R.H.Hully, History and Philosphy of Science .Lancmans, London , 1965 ,

M.Rosenthal and P.Yudin (eds),A Dictionary of Philosophy . Progress Publishers , Moscow , 1967 .

Mony ,Logique et Philosophie des Sciences.Paris, 1960.

(٣) توفيق الطويل ، اسس الفلسفة . دار النهضة العربية، ١٩٦٢ . في مجال التعريف بالعلم يقول توفيق الطويل ان " العلم يعني بملاحظة الظواهر الحسية وتصنيفها والكشف عما يقوم بينها من تتابع ودلالات نسبية، والصعود الى اصدار احكام وصفية على هذه الوقائع (هي قوانين العلم) . واخص ما يميز هذه الدراسة=

انه لكي يمكن الكلام عن علم يتعين :

- ان يكون لدينا أولا جسم نظري ، اي مجموعة من الافكار او النظريات تتوافر فيها شروط المعرفة العلمية ، بالنسبة لموضوع محدد تحديدا منضبطا .

- يتعين ثانيا ان يحقق لنا هذا الجسم النظري حدا أدنى من اليقينيات الاساسية .

- التي تسمح لنا ، وهذا ما يتعين وجوده ثالثا ، بتفسير الظواهر محل الاعتبار والتنبؤ بالاتجاهات العامة لحركتها .

لنرى عن قرب ماذا يعني كل من هذه العناصر .

١ - **يتعين اولا ان يكون لدينا جسم من المعرفة العلمية** . لكي تكون المعرفة علمية، تفرقة لها عن المعرفة العادية التي تكتسب من خلال التجربة الحياة اليومية ، يتعين ان يتوافر لها ثلاثة شروط : شرط اول خاص بالهدف من نشاط البحث وشرط ثان يتعلق بالسبيل الذي يتبع في نشاط البحث ، وشرط ثالث يخص النتيجة التي ينتهي اليها نشاط البحث :

(أ) يتعين **أن يكون هدف النشاط** (نشاط البحث) **الكشف عن القوانين** الموضوعية التي تحكم الوقائع او الظواهر محل الدراسة ، فيما يتعلق بالوقائع الاجتماعية ، تتمثل العملية الاجتماعية في مجموع النشاطات الاجتماعية لأفراد المجتمع في تكررها المستمر . في ظل ظروف معينة من التطور التاريخي لمجتمع معين تتكرر هذه النشاطات بطريقة خاصة تصبح من خصائص المرحلة التطورية التي يمر بها المجتمع محل الاعتبار . هذه الطريقة الخاصة لتكرار النشاطات الاجتماعية

= العلمية النزعة الموضوعية Objectivity وهي تقتضي اقصاء الخبرة الذاتية ودراسة الاشياء كما هي في الواقع . ثم النزاهة disinterestedness التي تتطلب التزام حيدة واستبعاد الذات Self-climination بكل ما تنطوي عليه من رغبات وميول. وعليه تقوم وظيفة العلم في الكشف عن العلاقات الفعلية الثابتة بين الظواهر الجزية (او مجموعة من الظواهر الجزئية) في مكانها وزمانها مع استبعاد العلاقات العرضية الوهمية المرجع السابق ص ١٣٥ - ١٣٦ ، ١٧٩ .

للأفراد تعطيها نوعا من الانتظام يمكن معه تمييز علاقات متكررة باستمرار بين الأفراد المختلفة [٤] . علاقات مؤداها ان حدوث فعل او مجموعة من الأفعال يرتب حدوث نتيجة معينة تقع حتما اذا ما توافرت شروط حدوثها . هذه العلاقات المتكررة هي وجه الدوام . البعض منها مشترك بين اكثر من شكل من أشكال المجتمع والبعض الآخر (وهو الأهم) خاص بشكل معين من اشكال المجتمع [٥] . هي التي يطلق عليها القوانين الاجتماعية . فهي اذن العلاقات التي تتكرر باستمرار بين مختلف عناصر العملية الاجتماعية مكونة على هذا النحو خصيصة لكل متكامل من النشاطات الانسانية من حيث انها تعبر عن العلاقات الداخلية المعنية التي تأخذ مكانا في داخل هذا الكل من النشاطات الانسانية . من أجل ذلك يقال ان هذه القوانين

---

(٤) ترجع النشأة المبكرة لعلم الفلك (وهو العلم الذي يدرس مواقع وحركة وتكوين الأجرام السماوية) في الحضارات الصوريقو البابلية ، في نظر L.W.H.Hull الى الحقيقة التي مؤداها ان " السموات واضحة ومثيرة للدهشة ، وان انتظام حركتها لا يمكن ان يغفل عنها الملاحظ" . انظر ص ٥ من كتابه : " تاريخ وفلسفة العلم . كما سنرى فيما بعد ، كان من اللازم انتظار القرن الثامن عشر لكي يفرض انتظام الحركة نفسه على الملاحظ في مجال الظواهر الاقتصادية وهو ما يرجع الى ظهور السوق القومية التي وحدت ونسقت كل النشاطات الاقتصادية للمجتمع التي تنصب فيها . كما يرجع كذلك الى بروز النشاط الصناعي كنشاط سائد يتزايد معه معدل تكرار العمليات الاقتصادية .

(٥) في نطاق الظواهر الاقتصادية مثال للقوانين المشتركة بين اكثر من شكل من اشكال المجتمع تلك المتعلقة بالتبادل والتداول النقدي وذلك رغم ان طريقة عملها تختلف من مجتمع الى اخر . ومثال القوانين الخاصة بشكل معين من اشكال المجتمع قانون الربح وقانون تحدد الاجر في المجتمع الرأسمالي وقانون الانتاج لاشباع الحاجات الاجتماعية في المجتمع الاشتراكي ، وذلك على النحو الذي سنفصله فيما بعد .

ذات طابع موضوعي [٦] . اي انها تكون خصيصة حقيقيه او عينية للعملية الاجتماعية . ويعبر عن هذه الطبيعة الموضوعية للقوانين الاجتماعيه احيانا بالقول بأن القوانين الاجتماعية تحكمها قوانين موضوعية ، كما يعبر عنها بالحديث عن عمل هذه القوانين في اثناء سير العملية الاجتماعية [٧] .

(ب) يتعين ثانيا لكي تكون المعرفة علمية ان نستخدم في عملية استخلاصها منهج البحث العلمي . هذا المنهج يتلخص :

- اولا في وصف وتقسيم [٨] الظواهر محل البحث العلمي ، هذه العملية التي تستند الى الملاحظة والتجربة العلميتين لموضوع البحث هي اول خطوة نحو فهم

---

(٦) Objective laws, lois objectives يراعى الفرق بين القوانين الموضوعية للعملية الاجتماعية وبين قوانين العلوم الاجتماعية ، الفرق بين الاثنين هو الفرق بين العملية الاجتماعية الحقيقية وبين المعرفة العلمية المتعلقة بهذه العملية ، بين الواقع والنظرية العلمية . هذا الفرق سيتضح لنا بعد انتهائنا من دراسة منهج الاقتصاد السياسي .

(٧) مثال قانون يحكم ظاهرة طبيعية نجده بالنسبة لظاهرة الغليان ، اذ يؤدي الوجود الجماعي لعدد من العوامل : سائل ، وليكن الماء النقي ، حرارة وضغط جوي يؤدي هذا الوجود الجماعي عند نقطة معينة (عند درجة حرارة ١٠٠ مئوية وضغط ٧٦٠ مم زئبق ، عند سطح البحر) الى تحقيق اثر (نتيجة) معين :تحول الماء من الحالة السائلة الى الحالة الغازية . هنا نكون بصدد مجموعة من الشروط وأثر توجد بينها علاقة (بين مجموعة الشروط من جانب والاثر من جانب آخر) . لكي يتحقق الاثر لابد من تجمع الشروط . فالعلاقة شرطية . ولكن اذا تجمعت الشروط فان الاثر متحقق بالضرورة. فالعلاقة ضرورية . هذه العلاقة هي التي تعكس القانون الذي يحكم الظاهرة .وهذا هو الذي يدفعنا الى الكلام عن القانون الموضوعي كعلاقة شرطية ضرورية .

كذلك نستطيع ان نضرب مثلا بظاهرة اقتصادية، ولتكن ظاهرة الربح، فالربح نوع من الدخل(النقدي) لكي يتحقق لابد من تجمع عدد من الشروط: انتاج مبادلة حيث وسائل الانتاج تملكها طبقة غير الطبقة العاملة وحيث العمال مفصولين عن وسائل الانتاج الامر الذي يؤدي بقدرتهم على العمل الى ان تصبح سلعة تباع لمن يملكون وسائل الانتاج.اذا ما تجمعت هذه الشروط تولد الربح في اثناء الانتاج

(٨) Systematic description and classification .

مجموع الظواهر محل الاهتمام . ويراد بالملاحظة العلمية [٩] " توجيه الذهن والحواس الى ظاهرة اومجموعة من الظواهر الحسية ، رغبة في الكشف عن صفاتها وخصائصها توصلا الى كسب معرفة جديدة ، وتقوم طريقة الدراسةعلى وصف الظاهرة ومراقبة سيرها عمدا ، وتقرير حالتها باختيار الخصائص التي تساعد على فهم حقيقتها ومعرفة كل الظروف التي اوجبت وجودها (اي عللها) والنتائج التي ينتظر ان تصدر عنها (معلو لاتها) [١٠] أما التجربة العلمية [١١] فهي اكثر من الملاحظة، هي " ملاحظة مستثارة " فالباحث في حالة الملاحظة يرقب الظاهرة ويسجل حالتها من غير ان يحدث فيها تغيرا ، اما في حالةالتجربةفانه يلحظ الظاهرة التي يدرسها في ظروف هيأها هو وأعدها بارادته تحقيقا لاغراضه في تفسير هذه الظاهرة. فالباحث يعدل من ظروفها او يغير في تركيبها حتى تبدو في انسب وضع صالح لدراستها .

- ثانيا في القيام باستخلاص القوانين والمبادىء العلمية عن طريق الاستقراء [١٢]، أي

---

(٩) Scientific observation

(١٠) توفيق الطويل ، ص ١٦١ ، ١٦٢ .

(١١) Experiment , experimentation

لتوضيح الفرق بين الملاحظة والتجربة تسجيل حركات الكوكب جوبيتر مثلا هو من قبيل الملاحظة البسيطة ، اذ ان الملاحظ لا يستطيعان يسيطر على هذا الكوكب اما الباحث الذي يراقب ما يحدث لمادة ماأذا ما قام هو بتسخينها تدريجيا فانه يقوم بتجربة . شأنه في ذلك شأن الكيميائي الذي يريد ان يعرف أثر غاز ماعلى الارنب ويلاحظ نتائج ذلك ، ولا ينتظر حتى تواتيه فرصة يدخل فيها الأرنب الى مكان مملوء بالغاز ليتبين اثر الغاز على رئتيه ، توفيق الطويل ، ص ١٦٢ فالفرق بين الملاحظة والتجربة هو ذلك الذي يوجد بين الاستنتاجات السلبي الى الطبيعة وبين طرح الاسئلة عليها . انظر Hull المرجع السابق الاشارة اليه ص ٣٣ .

(١٢) Investigation .

تحليل موضوع البحث عند مستوى معين من التجرد (١٣) (التجريد بخطوتيه التصورات الذهنية كالملموس (١٤) الى المجرد ، ثم من المجرد الى الملموس بعد اعادة تصوره في الذهن) (١٥) ، هنا نكون بصدد طريقة الاستقصاء بطبيعتها الاسقرائية الاستنتاجية (١٦)

---

(١٣) Abstraction .

(١٤) Le concret pensé .

(١٥) Concret figuré تتاح لنا قبل نهاية هذا الفصل التعرف على التجريد والدور الذي يلعبه في البحث الاقتصادي ، المعرفة المستخلصة هنا تقوم على الشك وتنتج عن المنهج التجريبي والاستدلال العقلي التجريدي . عن هذا المنهج يقول دافيد هيوم D. Hume " عندما نبحث في مكتباتنا ، مقتنعين بهذه المبادىء ، ما الذي يجب علينا عمله ؟ اذا امسكنا بأي مؤلف في الدراسات اللاهوتية او في الميتافيزيقيا المدرسية مثلا فلنطرح الاسئلة الآتية : هل يحتوي على اي استدلال مجرد بالنسبة للكمية او العدد ؟ لا . هل يحتوي على اي استدلال تجريبي متعلق بالواقع او الوجود ؟ لا . ألقه في النار ، لانه لا يمكن ان يحتوي الا على سفسطة أووهم " . من كتابه An Enquiry Concerning Human Understanding اقتطفها جون لويس John Lewis في كتابه Science, Faith and Scepticism ص ٢٢ - ٢٣ .

(١٦) الاستقراء Induction والاستنباط من طرق الاستخلاص المنطقي L inférence والاستقراء هو من قبيل الاستدلال الصاعد الذي يرتقي فيه الباحث من الحالات الجزئية الى القواعد العامة (القوانين) فهو انتقال من جزئيات الى حكم عام ، فنتائج الاستقراء أعم من مقدماته . ومعيار الصدق في الاستقراء هو اتساق نتائجه مع خبرتنا في العالم الحسي . نكون بصدد طريقة الاستقراء عندما يوصلنا البحث في طبيعة جزئيات عديدة الى معرفة حقيقة عامة . فعندما نتحقق من خلال التجربة البحث من ان مياه الكثير من البحار مالحة وان مياه العديد من الانهار عذبة فاننا نستخلص الحكم العام الذي مؤداه أن ماء البحر مالح وان ماء النهر عذب . اما الاستنباط deduction فهو عملية استخلاص منطقي بمقتضاها ينتقل الباحث من العام الى الخاص ، اذ يبدأ بوضع مقدمات عامة ويهبط منها متدرجا الى افراد تندرج تحت هذه المقدمات . أي أن النتيجة متضمنة في المقدمات . فنتائج الاستنباط اخص من مقدماته ومعيار الصدق فيه هو اتساق نتائجه (منطقيا) مع مقدماته . مثال ذلك ان نبدأ من المقدمة (الحكم العام) ان كل انسان فان . وبما ان سقراط انسان ، اذن فهو فان =

واستخدام هذه الطريقة يمكننا التوصل - من خلال عملية التحليل - الى أفكار أومقولات (١٧) تتعلق بموضوع البحث العلمي ، وذلك بشرط ان نحلله في حركته عبر الزمن .

- ثالثا : استكمالا للخطوة الثانية يقوم الباحث ببناء القروض على اساس هذه المقولات بقصد تفسير ما لوحظ من خصائص الظاهرة محل البحث والعلاقة بين عناصرها (وذلك في حركتها) ثم استنتاج خصائص اخرى لم تكن محلا للملاحظة الاولى. هذه الفروض ترتكز على الملاحظة والتجربة . ويتعين الا تتنافى مع الحقائق المقررة والقوانين العلمية والحقائق المسلم بها . هذه الفروض لا يستطيع الباحث بنائها الا

== (الحكم الخاص) .

هذا وقد عرف تاريخ المناهج صراعا بين الاستقراء والاستنباط كطريقتين للاستدلال اعتقد انهما متضادتين . هذا الصراع انما يدخل في اطار نقاش أوسع بين التجريبيين Empirists من امثال فرانسيس بيكون Fr,Bacon (١٥٦١ - ١٦٢٦) وجون لوك John Locke (١٦٣٢ - ١٧٠٤) وكوندياك E.Condiliac (١٧١٥ - ١٧٨٠) والعقلانيين Rationalists من امثال ديكارت R.Descartes (١٥٩٦ - ١٦٥٠) وليبنز G.Leibniz (١٦٤٦ - ١٧١٦) .

والواقع ان تصورهما على هذا النحو خلق لمشكلة زائفة . فهاتين الطريقتين ليستا بالمتضادتين . وانما هما متكاملتان ، يكون استخدامهما معا كطرق استدلال علمي ، على ان يتم ذلك بوعي بمكانهما السليم في مراحل منهج البحث العلمي ، على النحو الوارد في المتن . انظر في ذلك :

- A.L.Alande,Vocabulaire technique et critique de la Phiolosphie,P.U.F.Paris,1962,p.506 et 204.
- Les Théories de l'Induction et de l'exptrimentation, Libraire Boivni .
- F.Engels,Dialectique de la Nature.p.228 .

(١٧) Categories.

- رابعا : تتمثل المرحلة الاخيرة في منهج البحث العلمي في تحقق (٢١) من (أو اختبار) صحة نتيجة عملية استخلاص المعرفة هنا يسعى الباحث الى تمحيص النظرية المستخلصة المفسرة للظاهرة محل الدراسة ، لمعرفة مدى صوابها أو خطئها وذلك قبل ان تستخدم هذه النظرية هاديا للعمل . والتحقق يتم أولا نظريا بالتأكد من عدم وجود اي تناقض منطقي بين اجزاء النظرية وثانيا بمواجهتها بالواقع .

(ج) يتعين ثالثا لكي تكون المعرفة علمية ان تكتسب المعرفة المستخلصة انضباطا ينتج عن معرفة المظاهر الكيفية والكمية (القابلة للقياس) للظاهرة محل الدراسة . وذلك لان الكيف والكم لا ينفصلان رغم تضادهما ، اذ الامر يتعلق في الواقع بمظهري الظاهرة محل الدراسة . معرفة طبيعة الظاهرة لايمكن ان تتم بالتضحية بأحدهما . ولكن دراسة المظاهر الكمية لا يمكن ان تكون الا على اساس معرفة كيفية للظاهرة ، اذ هذه الاخيرة ضرورية لنفس تحديد الظاهرة - في تصورنا الفكري - التي نريد التعرف على مظاهرها الكمية . فالكيف هو طريقة الكينونة . فهو يمثل الشرط ، او الاساس ،الذي سيكون استمراره او تكراره محلا لتحديد كمي لتحديد قابل للقياس ممثلا لمقادير ، لكميات اهمال الكيف لايمثل - كما يظن البعض - الموضوعية في التحليل ، وانما هو - كما يقول كارل مانهايم (٢٢) - نفي للخصيصة الجوهرية لموضوع المعرفة (٢٣) . من ناحية اخرى فالتضحية بالمظاهر

== الافتراضات (غير العلمية) . انظر جون لويس ، المرجع السابق ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(٢١) Verification .

(٢٢) K.Mannheim,Ideology and Utopia:An Intreduction to the knowledge.Routledge & Kegan London 1936, p. 42 .

(٢٣) في هذا المعنى يقول برتراندرسل ان العلم لايقتصر بأي حال من الاحوال على ما هو قابل للقياس . فالقوانين الكيفية يمكن ان تكون علمية شأنها في ذلك شأن القوانين الكمية . انظر جون لويس ، المرجع السابق . ص ٢٥ - ٢٦ .

التكميم هو مان تتمكن لنا من الانضباط والدقة التي لا غنى عنهما اذا أردنا الوصول للمعرفة العلمية التي تكون لنا السيطرة على الظواهر والسيطرة عليها

ولكي نصل الى هذا الهدف الذي نراه جديرا بالسعي لكي يكون لمعرفتنا صفة العلمية وبالتالي الوصول الى الكشف عن القوانين الموضوعية التي تحكم الظواهر يتطلب منا ان نميز بين القوانين العلمية (النظرية) التي تهتم بالتجريد والعموم ، والتي تبحث عن العلاقات بين المتغيرات ، وبين القوانين الموضوعية للظواهر ، والفرق بين الظواهر في واقعها وبين المعرفة المتعلقة بها ، بين الواقع والنظرية العلمية ، القوانين العلمية هي انعكاس للقوانين الموضوعية التي تحكم الظواهر المكونة للواقع محل الدراسة ، هي انعكاس لهذه القوانين ، ليس في كل تفاصيلها وانما انعكاس لما هو جوهري في العلاقة اي انعكاس للعلاقة على مستوى معين من التجريد النظري ، بمعنى اخر ، اي القوانين العلمية ، اكثر من ذلك ، اذ يتعين ان تفسر الواقع ، ولكي يفسر الواقع لابد للعلم من ان يغامر بالتوغل خلف الواقع الملاحظ الى الحقيقة التي تفسره ، عن طريق ارجاعه على التحليل الاكمل الى التركيب الكلي الذي هو جزء منه ، بمعنى آخر لكي نتمكن من تفسير الظاهرة لابد من تعديتها الى الكل الذي تنتمي اليه وتعد جزءا منه .

مجموع القوانين العلمية المتعلقة بنوع معين من الظواهر (ولتكن الظواهر الاقتصادية مثلا) هو الذي يكون العلم الذي يهتم بهذا النوع من الظواهر .(٢٤) ولكن يحق لنا الكلام عن هذا المجموع كعلم لابد من توافر الشروط المتطلبين .

---

(٢٤) انظر Lalande المرجع السابق ، كذلك :
J.Gould & W.L.Kolb(eds).The Dictionary of the Social Science,(UNESO).Tavistock Publication ,London.1964, p. 620 .

٢ - يجب ثانيا لكي يمكن الكلام عن علم ، أن يتعلق الأمر بموضوع محـــــدد . وموضوع المعرفة العلمية بصفة عامة هو التصويرات الذهنية Les representation Figurées للظواهر (او الوقائع): الطبيعية ، عندما تكون بصدد علوم الطبيعة والاجتماعية في حالة العلوم الاجتماعية اوالانسانية . وفي هذه العلوم الاخيرة ينصب موضوع المعرفة على السلوك الانساني (العلاقات الاجتماعية) وبما ان الانسان هـــو الذي يستخلص المعرفة ، نكون بصدد وحدة من يستخلص المعرفة ، وموضـــــوع المعرفة (٢٥) .

٣ - يلزمنا اخيرا لكي يمكن الكلام عن علم ، أن يكون لدينا حدا ادنى من المعرفـــة اليقينية الاساسية يمكننا من تفسير الظواهر محل الاعتبار ، ومن التنبوء بالاتجاهات العامة لحركة هذه الظواهر . لماذا نفسر ونتنبأ ؟ لكي نعمل ونتصرف . ولكـــــن التصرف ينتمي الى دائرة ما يجب اتخاذه لتغيير الواقع وهنا تكمن في نهاية الأمـــر وظيفة العلم . فهو يساعدنا على ان نرى في الظواهر الروابط التي كانت خافيـــــة علينا من قبل ، يساعدنا على ان نرد الآثار الى مسبباتها ، يساعدنا على ان نحـــل المنتظم والضروري محل التحكمي والعرضي . في كلمة واحدة يساعدنا العلم على أن نفهم الكون لكي نتصرف فيه بذكاء وفعالية بقصد تغييره .

بعد أن حددنا العناصر التي يمكننا وجودها الجماعي من الكلام عن علم يتعين علينا الان أن نرى الى اي حد يتوافر ذلك في حق الاقتصاد السياسي .

٢ - هل الاقتصاد السياسي علم ؟

يكون الاقتصاد السياسي علما اذا ما تجمعت بالنسبة له العناصر المكونـــة للعلم والتي انتهينا توا من الكلام عنها :

---

(٢٥) L´unité du sujet et de l´object .

أ - بالنسبة للموضوع ، للاقتصاد السياسي موضوع محدد تحديدا منضبطا . فالأمر يتعلق كما رأينا من قبل ، بالعلاقات الاجتماعية التي تأخذ مكانا بوساطة الأشياء المادية والخدمات وهو ما يميزها عن غيرها من العلاقات الاجتماعية كالعلاقات في داخل الأسرة والعلاقات السياسية ، وغيرها .

والظواهر الاقتصادية التي يتعلق بها موضوع علمنا ، تحكمها قوانين موضوعية تمثل خصيصة حقيقية لهذه الظواهر ، يزيد على ذلك ان هذه القوانين مستقلة عن ارادة انسان بمعنى آخر ، هذه القوانين تحكم الظواهر الاقتصادية دون اعتداد بارادة الافراد ولا بوعيهم او عدم وعيهم بهذه القوانين . مرد ذلك :

- اولا ، ان الظروف الاجتماعية التي تباشر فيها جماعة معينة نشاطها الاقتصادي ظروف محددة تاريخيا : فكل جيل يتلقى من الاجيال السابقة تراثا من قوى الانتاج ، من المعرفة العلمية والفنية المتراكمة عبر الاجيال ، ومن العلاقات الاقتصادية . كل ذلك يمثل بالنسبة لهذا الجيل نقطة البدء في عملية الانتاج . يضاف الى ذلك ان عملية الانتاج هي في ذات الوقت عملية للانتاج ولتجدد الانتاج ، بمعنى ان الانتاج في خلال فترة معينة ، ولتكن السنة الحالية، يحقق في نفس الوقت شروط الانتاج في الفترة التالية ، ولتكن السنة المقبلة . وهو ما يعني ان الانتاج في خلال فترة ما يعتمد على تحقق شروطه اثناء الفترة السابقة . ابتداء من هذه الطبيعة نستطيع ان نرى ان ما يتلقاه كل جيل يمثل بالنسبة له الظروف التاريخية التي تحدد القوانين الاقتصادية السائدة في ظل هذه الظروف .

- مرد ذلك ثانيا ، ان النتيجة الاجتماعية للنشاط الاقتصادي هي محصلة لتفاعل العديد من النشاطات الفردية المتشابكة الامر الذي يعطي لهذه النتيجة الاجتماعية تفردا عن كل عمل من الاعمال الفردية التي ساهمت في تحقيقها فيما لو اخذ هذا العمل على حدة . فرغم ان كل من قام بجزء من النشاط قد ساهم في تحقيق النتيجة الكلية، الا ان هذه الاخيرة تبرز كنتاج لتفاعل النشاطات المختلفة للأفراد

والمجموعات الاجتماعية ، وهو ما يعطي هذه النتيجة استقلالا معينا عن ارادة الافراد . بهذا المعنى يقال ان القوانين الاقتصادية قوانين موضوعية مستقلة عن ارادة الافراد الذين يمارسون النشاط الاقتصادي في المجتمع .

ولكن اذا كانت القوانين التي تحكم الظواهر الاقتصادية مستقلة عن ارادة الانسان فان طريقة اداءها (٢٦) ليست بالحتم كذلك . فمن وجهة النظر هذه يفرق بين قوانين اقتصادية تعمل بطريقة تلقائية (٢٧) استقلالا عن ارادة الانسان وقوانين اقتصادية تعمل بطريقة واعية (٢٨) . بالنسبة للنوع الثاني ، وكما هو الحال بالنسبة لقوانين الظواهر الطبيعية ، يستطيع الانسان ان يسيطر على طريقة أداء القانون الذي يحكم الظاهرة بعد اكتشافه له : فباكتشاف الانسان لقانون الغليان تمت سيطرته عليه : فيستطيع توفير الشروط (السائل ، الحرارة ، والضغط الجوي) الضرورية في كل حالة يريد فيها تحقق النتيجة بل اكثر من ذلك ، فهو يستطيع ان يتصرف في كيفية تجميع هذه الشروط فيستطيع مثلا ان يحول السائل الى غاز عند درجة حرارة ادنى اذا ما رفع من الضغط الجوي ، وهكذا . كذلك اذا ما اكتشفنا ان هناك علاقة بين القوة الشرائية للمستهلكين ، وثمن سلعة معينة ، وأثمان السلع الاخرى التي يشتريها المستهلكون - من جانب - وبين الكمية التي يطلبها المستهلكون من هذه السلعة (الاولى) ، من جانب اخر ، علاقة مؤداها ان هذه العوامل تحدد تلك الكمية يكون في استطاعتنا ان نؤثر على الكمية المطلوبة بفعل واع يتمثل في تغيير احد هذه العوامل (كأن نزيد من القوة الشرائية للمستهلكين مثلا لكي نزداد الكمية المطلوبة) .

---

(٢٦) Mode of action , mode d'action .

(٢٧) Spontaneous . Spontané .

(٢٨) Conscious ; Conscient , intentioné .

عليه نستطيع ان نقول بصفة عامة ان اكتشاف القوانين الموضوعية التي تحكم الظواهر الاقتصادية يمكننا من ان نتصرف بوعي بتوفير الشروط اللازمة لتحقيق النتيجة المرغوبة . في هذه الحالة يقال ان طريقة اداء القوانين الاقتصادية واعية .

لم يبق للانتهاء من موضوع الاقتصاد السياسي الا ان نبرز ان لهذا الموضوع بوصفه التصورات الذهنية للعلاقات الاجتماعية المكونة لعملية النشاط الاقتصادي طبيعة تاريخية . اذ حيث ان الموضوع اجتماعي لايمكن ان يكون جامدا لا يتغير (حتى ظواهر الطبيعة هي في الواقع في تغير مستمر) فالظواهر الاقتصادية في تحول مستمر في حركة لا تنقطع . فالانتاج الزراعي الذي تقوم به عائلة الفلاح في ريفنا المصري في القرن السادس الميلادي مثلا ، حيث الهدف المباشر من الانتاج هو اشباع حاجات افراد العائلة ومن يلزمون في مواجهتهم بالتمثيل عن جزء من الناتج (مالك الارض التي يزرعونها مثلا) وحيث يتم الانتاج بفضل عمل افراد العائلة بمعرفتهم الفنية المحدودة . مستخدمين لادوات انتاج بسيطة ، هذا الانتاج الزراعي يختلف كيفيا عن الانتاج الذي يتم في وقتنا هذا في مزرعة متسعة المساحة يملكها فرد ملكية خاصة . هذ الفرد قد لايسهم في عملية العمل وانما يستخدم العمال الاجراء يبيعون له قدرتهم على العمل في مقابل اجر نقدي ، ويستعملون في اثناء عملية الانتاج وسائل انتاج حديثة متطورة يملكها مالك المزرعة . وذلك لانتاج سلع توجه الى السوق حيث يبيعها مالك المزرعة بقصد الحصول على الربح النقدي الذي انتج في عملية الانتاج . النوع الاول من الانتاج الزراعي يمثل ظاهرة اقتصادية تختلف عن الظاهرة التي يمثلها النوع الثاني ، ويكون القانون الموضوعي الذي هو من طبيعة الظاهرة الاولى مختلفا عن ذلك الذي يحكم الظاهرة الثانية .

فالظواهر الاقتصادية اذن تختلف من تكوين اجتماعي الى آخر وهي ظواهر نوعية تاريخية .

يتضح الآن ان موضوع الاقتصاد السياسي محدد تحديدا منضبطا من حيث انه

[illegible]

٣ - يمثل منهج الباحث الاقتصادي المنهج العام للبحث العلمي الذي سبق الاشارة عنه ولكنه يجد نفسه في موقف اقل تميزا بالنسبة للباحث الذي ينصب نشاطه على الظواهر الطبيعية وهو ما يرجع الى عدم امكانية لالتجاء الى التجربة على نطاق واسع في مجال الظواهر الاجتماعية (بالمقارنة بالظواهر الطبيعية) ، اذ يكاد يستحيل على الباحث الاقتصادي ان يتوصل الى استبعاد كل القوى غير تلك التي يريد عزلها لتجعل منها موضوعا لملاحظته .

ومن هنا لزم الالتجاء الى التجريد وبهذا المعنى يقال ان التجريد يلعب دورا في مجال البحث الخاص بالظواهر الاقتصادية الدور الذي تلعبه التجربة في البحوث المتعلق بالظواهر الطبيعية ، وهو على هذا النحو يلعب دورا ذي اهمية خاصة ، الأمر الذي يلزم معه ان نرى عن قرب دور التجريد في منهج الاقتصاد السياسي .

في عملية الاستقصاء التي تمثل مرحلة من مراحل المنهج الذي يتبعه الدارس للظواهر الاقتصادية لا يمثل التجريد الا خطوة واحدة - اذ الواقع ان هذه العملية تتلخص في خطوتين : من التصورات الذهنية للمدلوس" الى المجرد كخطوة أولى ، ومن المجرد الى المدلوس بعد اطلاق تصوره من الذهن " كخطوة ثانية ، والتي [illegible]

مباشرة للملموس (اى الواقع المراد دراسته) اى من مقولات موجودة فعلا تخص هذا الملموس في شكل مقولات عملية او ايديولوجية او دينية او شبه علمية وعلمية . من هذه التصويرات ننتهي - عن طريق التجريد - الى مفاهيم اقل تعقيدا ، وعليه يتم الانتقال - في مخيلة الباحث - من التصوير الذهني للملموس الى مستويات اكثر تجريدا . فكيف يقوم الباحث بالتجريد ؟ الهدف من هذه الخطوة الاولى ، اى من التجريد هي عزل ما هو جوهري في موضوع المعرفة معبرا عنه (اى عن هذا الموضوع) بالتصوير الذهني الذي بدأنا منه . بمعنى آخر الهدف من هذه الخطوط هو التجريد من كل من ما هو ثانوي في موضوع المعرفة، عملية العزل هذه تتم في مخيلة الباحث عن طريق تصوره لموضوع المعرفة وكأنه قد تخلص الا من جوهره . وما يعد من جوهر موضوع المعرفة لا يتحدد بطريقة تحكمية . وانما يتوقف على الهدف من التحليل من ناحية وعلى الشروط الموضوعية لمحل الدراسة من ناحية اخرى . فالتجريد يتم اذن بناء على الملاحظة المقارنة لموضوع المعرفة وعلى تحليله .

ما يبقى بعد التجريد يتعين ان يمثل صورة بسيطة وعميقة للخصائص الرئيسية لموضوع المعرفة ، اى صورة بسيطة وعميقة لجوهر الظاهرة التي ندرسها .

فاذا ما رفعنا الجوهر - جوهر الظاهرة موضوع البحث - الى مستوى معين من التجريد نستطيع ان نقوم بتحليلها للتعرف على طبيعتها اى لاستخلاص افكار خاصة بها هذه الافكار المستخلصة انما تتوافق مع هذا المستوى من التجريد بمعنى انها افكار استخلصت عند هذا المستوى من التجريد . فاذا ما اردنا ان نتبين مدى صحتها لزم علينا الا نفصلها عن مستوى التجريد الذي استخلصت عنده . هذه نقطة هامة يتعين الا تغيب ابدا عن الذهن .

والخطوة الثانية في عملية الاستقصاء - استخلاصا للمعرفة الاقتصادية - تتمثل في الانتقال من المجرد الى الملموس بعد اعادة تصوره في الذهن de l'abstrait au concrel pensé وهي تمثل عودة في مخيلة الباحث

نقطة البدء في عملية الاستقصاء بل هو الملموس وقد اعيد بناؤه في الذهن اي اعيد انتاجه بواسطة الفكر ، فهو الملموس فكرا Concret - Pensé وبهذا تكون المعرفة العلمية قد استخلصت .

وفيما يخص طرق الاستخلاص المنطقي تتسم عملية الاستقصاء هذه بطابع استقرائي - استنباطي . حيث يلعب الاستنباط دورا اقل اهمية من دور الاستقراء .

فاذا ما استخلصت الافكار النظرية يتعين - كما سبق ان رأينا - ان نقوم بالتحقق من صحتها . في مجال المعرفة المتعلقة بالظواهر الاقتصادية يكون التحقق - بعد ازالة التناقض المنطقي بين اجزاء النظرية - بمواجهة النظرية المستخلصة بالواقع احصائيا عندما يتعلق الامر بالمظاهر الكمية القابلة للقياس أو تاريخيا أو على النحوين معا .

فاذا ما استخلصت المعرفة الاقتصادية وجب تقديمها الامر الذي يلزم معه اتباع طريقة معينة للتقديم (٢٩) اي لتقديم المعرفة الى من يتوجه اليهم الباحث بمعرفته .

---

(٢٩) انظر في منهج الاقتصاد السياسي Méthode de Présentation

O G.G. Granger , Méthode économique . P.U.F. 1955 .

- A.Marchal , Méthode scientifique et science économique, 2 tomes Génin . 1952 et 1955 . B . Nogaro , La Méthode en économie politique Librairie Générale de Droit et de Jurisprudence , 1971. O- Lange . Economie politique . ch 2.
- M.Dowidar Les Schémas de reproduction et la méthodologie de la planification socialiste , ch 3 - J.Schumpeter Economic Doctrine and Method , Allen & Unwin , London . 1954 .
- M.Dobb Scientific method and thge Criticim of Economics, Science & Society Vol 3 No, 3, 1939 O M . Dobb .Marxism and Social laws , Monthly Review ,Vol.ii No.7 ,1959 - J.Piaget (direction) . Logique et Connaissance Scientifique,Encyclopédie de la Pléiade , 1967, =

لم يبقى لكي ننتهي من منهج الاقتصاد السياسي الا ان نضيف ان جزء ا من المنطق الاستنباطي يشغل مكانا خاصا في ادوات ، او تكنيك ، التحليل الاقتصادي (٣٠) ذلك هو المنطق الرياضي (٣١) وهناك اتجاه في الكتابات الاقتصادية الى المغالاة الـــــــ

Surtout P . 1019 0 1057.- La Science économique, in A. Tendances principales de la recherche dans les science sociales et humaines. lere Partie.Mouton UNESCO Paris La Haye , 1970 .

(٣٠) نقصد " بالتحليل" عملية التوصل الى نظريات اى الى تعميمات مجردة . فالنظريات هي اهم النتائج النهائي للتحليل في عملية التحليل التي تهدف الى استخـــــلاص مقولات نظرية تستخدم الادوات او التكنيك (الاستقرائي ، الاستنباطي وخاصـــة بيانها . الاحصائي . الخ)

(٣١) يعتبر G.Ceva (وهو ايطالي اهتم في القرن الثامن عشر بالمشكـــــلات النقدية) N.F.Canard (وهو استاذ فرنسي في العلوم ١٧٥٨ - ١٨٣٣) رواد الاقتصاديين الرياضيين . انظر : Dictionaire des sciences Economiques .J.Romeuf (ed) Tome L.P. 196 - 7

ويذهب شومبيتر الى غير ذلك ، اذ يتعلق الامر بالسنبة لهذين المؤلفيـــــن وغيرهما الـــــي بعض التكنيك الرياضي في التحليل الاقتصادي وليـــــــــس باستخدام المنطق الرياضي نفسه ويقول شومبيتر ان اول من بين ما يمكن أن تؤديه الرياضيات للتحليل الاقتصادي هما : AA.Couront (مفكر ورياضي فرنسي ١٨٠٠ - ١٨٧٧) وذلك في مؤلفه Recherches sur les prinicpes methématiques de la théorie de la richess.

الذي نشر في ١٨٣٨) و J.H,Von Thunen (مزارع المانى ١٧٨٣ ....) وذلك في كتابه The Isolated state الذي نشر اول جزء منه فـــي ١٨٢٦) انظر كتاب شومبيتر : تاريخ التحليل الاقتصادي ص ٤٤٩، ٩٥٥، ٩٦٠، انظر كذلك المقال التالي وهو في غاية الافادة في مجال التحليل الكمي .

J.J.Spengler,Quantification in Economics : Its History, in, D.Lerner (ed) Quantity and Quality , The Free Press of Glencoe ,New York ,1961. خاصة ص ١٥٤ - ١٦٤ .

وفيما يتعلق بموقف كارل ماركس من استخدام الرياضيات في التحليل الاقتصـــادي نستطيع من قراءتنا لخطاب أرسله الى انجلز بتاريخ ٣١ مايو ١٨٧٥ ان نرى أن=

استخدام هذا التكنيك فى التحليل الاقتصادى . ازاء هذا الاتجاه يتعين علينا ان نحسى من الآن الاستعمال السليم للادوات الرياضية حتى نتفادى استخدامها فى غير موضعها

بما اننا نلجأ الى الرياضيات كشكل للاستدلال الاقتصادى ، وبما ان هذه هى اداة التعبير الكمى ، فان الاستعانة بالتكنيك الرياضى فى التحليل الاقتصادى لا يكون الا بالنسبة للتعرف على المظاهر الكمية للظواهر الاقتصادية . وبما ان معرفة هذه الظواهر لا تكون ممكنة الا على اساس المعرفة الكيفية للظاهرة وجب ان يكون التحليل الكمى الذى نستخدم فيه الادوات الرياضية مسبوقا بتحليل كيفى للظاهرة الاقتصادية ايا ما كان الامر يتعين الا ننسى اننا نشتغل باستدلال اقتصادى فى شكل رياضى ، اذ يتعين الا يحل الاستدلال الرياضى محل الاستدلال الاقتصادى بأية حال من الاحوال والا ادى ذلك الى زيف فى التحليل وعرقل من تطور المعرفة الاقتصادية (٣٢) .

= ماركس بناءه فى نهاية حياته فكرة معالجة نظرية الدورات الاقتصادية معالجة رياضية ، انظر : M.Dowidar,Les Schémas de reproductionP128

(٣٢) فهم الاستعمال السليم للادوات الرياضية يجنب الاقتصاد السياسى مصير علمى الطبيعة والفلك عند الاغريق . ومثلهما فى تاريخ الفكر الانسانى يفيد كل الافادة فى هذا المجال ، فقد كانت المعرفة الخاصة بالاحياء والطب عند هيبوقراط Hippocrate وارسطو - وكانت علاقتهما بالرياضيات محدودة للغاية ، وهو ماكان يعد استثناء بالنسبة لحال فلاسفة الاغريق . وكانت هذه المعرفة اكثر تقدما بكثير من المعرفة الخاصة بالطبيعة والفلك ومرد ذلك ان اثر الرياضيات على ارسطو كان غائبا بالنسبة للاحياء والطب بينما ورث فى مجال الطبيعة والفلك تقاليد من سبقوه بما فيها تقليد كثرة الالتجاء الى الرياضيات . فى هذه الآونة شغلت الرياضيات ذهن الرجال عن الملاحظة والتجربة ووجهتهم الوجهة التى مؤداها ان المعرفة يمكن أن تستنبط ابتداء من مبادىء بديهية او مسلمات ، انظر : L.W.Hull تاريخ وفلسفة العلم ص ٥٦ .

هذا لايعنى اننا نتجاهل ما حققته الرياضيات وهى خلق انسانى من تطورات هائلة الآن ، تطورات تجعل من الممكن استخدامها على نطاق واسع وعلى نحو مستمر فى التحليل الاقتصادى وانما ذلك مشروط بأن نعطيها مكانها السليم (الوارد تحديده فى المتن) فى مناهج الاستدلال الاقتصادى انظر فى ذلك : =

هذا وتظهر فائدة الادوات الرياضية على وجه خاص عندما تستعمل في بنـــــاء النماذج الاقتصادية (٣٢) .

---

(٣٣) == R. Nemchinov, The use of Mathematics in Economic, Oliver & Boyd , London , 1964. ويمكن ان نميز بيـــن economic models: modéles économiques معنيين لاصطلاح "النموذج" كما يستخدم في التحليل الاقتصادي :

أ - بمعنى واسع يستخدم لاصطلاح للتعبير عن كل بناء نظري يقصد به فهم أو شرح طريقة اداء او ميكانيزم النظام الاقتصادي عن طريق اخذ النظام ككل مترابطـــة اجزائه ومعتمدة كل منها على الاخر. وذلك بقصد التعرف على كيفية تحديـــد اثر التغير في عنصر او اكثر على عناصر النظام الاخرى او على النظام بأكملـــه. والنموذج يمثل على هذا النحو تصويرا مجردا للواقع . ومن ثم كان دائما افقـــر من الواقع . وهو بهذا المعنى يشمل المظاهر الكيفية والكمية للظواهـــــر الاقتصادية المكونة للنظام الاقتصادي محل الدراسة .

ب - وقد بدأ الاصطلاح ياخذ معنى خاصا في الفكر الاقتصادي المعاصر وخاصة في مجال التحليل الكمي Quantitative analysis; analyse quantitative يقصد به كل بناء نظري يهدف الى وصف عمل النظام الاقتصادي عن طريـــــق التعبير عنه بمجموعة من المعادلات الاتية : تمثل علاقات الاعتماد المتبادل بين عناصر النظام في مظهرها الكمي وهي العلاقات التي تحدد عمل النظـــام . بناء نموذج بهذا المعنى يفترض وجود جسم نظري من التحليل الاقتصـــادي واستخدام لغة رياضية للتعبير عن علاقات الاعتماد المتبادل بين عناصـــر النظام الاقتصادي في صورته النظرية المبسطة . بمعنى اخر ، بناء النموذج على هذا النحو يتم عن طريق تزويج التحليل الاقتصادي مع وسائل التعبير التي تتميز بتجريد وتعميم بالغين . وهي الوسائل الرياضية (اذا تم التـــزاوج بين التحليل الاقتصادي والتحليل الاحصائي واستعملت اللغة الرياضية فـــي التعبير كنا بصدد نموذج من نماذج الاقتصاد القياسي ;Econometrics) L'Econométrie . وعليه يظهر النموذج ككل مكون من عناصر تسمى المتغيرات Variables يربطها ببعضها البعض عدد من العلاقـــات . هذه المتغيرات تمثل التعبير الكمي عن العناصر المكونة للظاهرة الاقتصادية المدروسة والمسببة لتغيراتها قد تكون خارجية Endogenous يعتبرهـــا الباحث خارج النظام الاقتصادي محل البحث فقيمها تتحدد مستقلة عن هـذا النظام. وقد تكون داخلية Endogenous تتحدد قيمها كنتيجة لأداء =

بالنسبة للمنهج اذن يتضح ان الباحث الاقتصادي يستخدم كقاعدة عامة بالنسبة لموضوع سبق بيان انه محدد تحديدا منضبطا منهج البحث العلمي مع اعتماد خاص على التجريد الذي يحل محل التجربة في دراسة الظواهر الاقتصادية . كما انه يستطيع الاستعانة بالادوات الرياضية عند دراسة المظاهر الكمية لهذه الظواهر بشرط ان تكون هذه الدراسة مسبوقة بدراسة كيفية للظاهرة .

هذا بالنسبة لموضوع الاقتصاد السياسي ومنهجه ، ماذا عن حال المعرفة الاقتصادية الحالية ؟

٣ - يعطينا الاقتصاد السياسي بحالته الراهنة حدا ادنى من المعرفة اليقينية التي تصلح اساسا لتفسير الظواهر الاقتصادية (المكونة لطرق الانتاج المختلفة) والتنبؤ المعقول بحركاتها المستقبلة . الامر هنا يتعلق بمجموع القوانين الاقتصادية النظرية (او النظريات الاقتصادية) التي توجد تحت تصرفنا والخاصة

== النظام نفسه . هذا وتعبر المعادلات المكونة للنظام عن انواع مختلفة من العلاقات .

فقد تكون المعادلة تعبيرا عن علاقة تعريفية Definition equation كما اذا قلنا ان الدخل = الادخار + الاستهلاك . وهو ما يعني ان الدخل يتحلل الى الادخار والاستهلاك . في هذه الحالة يستحسن استخدام العلامة ≡ بدلا من علامة التساوي .

- وقد تعبر المعادلة عن علاقة فنية كدالة الانتاج التي تعبر عن العلاقة الفنية او التكنولوجية بين كمية المدخلات Inputs المستخدمة في الانتاج وكمية الناتج Output ك = د(ع ١ ، ع ٢ ، ..... ع ن) .
حيث ترمز ك لكمية الناتج ، ع ١ للعنصر الاول من عناصر الانتاج ، ع ٢ للعنصر الثاني . وهكذا .

- اخيرا قد تعبر المعادلة عن علاقة من العلاقات السلوكية behaviour relations مثال ذلك دالة الاستهلاك في نموذج كينز Keynes
س = د (ل)، حيث س ترمز للاستهلاك ، ل للدخل .

بالاشكال التاريخية المختلفة للعملية الاقتصادية ، والتي قد تم التحقق من صحتها علميا . (وهو مايستبعد النظريات التي تثبت عدم صحتها بمواجهتها بالواقع الاقتصادي في حركته التاريخية . والتي يرد عدم صحتها الى سوء تصور اصحابها لموضوع ومنهج العلم في ارتباطهما العضوي) .

وبما ان موضوع الاقتصاد السياسي اي التصويرات الذهنية المتعلقة بالعملية الاقتصادية في شكل من اشكالها المختلفة : طابع تاريخي ، فان قوانينه النظرية يكون لها هي الاخرى هذ الطابع التاريخي (مع التحفظ الخاص بأن بعض القوانين الاقتصادية ترتبط بأكثر من شكل من اشكال المجتمع) وعليه لا نستطيع ان نتكلم عن قوانين اقتصادية الا في اطار هياكل اجتماعية متميزة كيفيا .

يترتب على ذلك ان الاقتصاد السياسي اي مجموع القوانين (النظرية) الخاصة بعملية الانتاج والتوزيع في اشكالها الاجتماعية المتغيرة ، يكون علما ذا طابع تاريخي . فليس هناك علم اقتصاد صالح لكل اشكال المجتمع . اذ لا يمكن ان نتوقع ان تكون القوانين الاقتصادية في مجتمع يسود فيه الانتاج بقصد الاشباع المباشر لحاجات المنتجين هي نفس القوانين الاقتصادية لمجتمع يسود فيه انتاج المبادلة . كما لا يمكن ان نتوقع ان تكون القوانين الاقتصادية في مجتمع تقوم فيه روابط الانتاج (في ارتباطها بمستوى قوى الانتاج) على الملكية الفردية لوسائل الانتاج هي نفس القوانين الاقتصادية لمجتمع تقوم فيه هذه الروابط على الملكية الجماعية لوسائل الانتاج. حقيقة انه توجد بعض الظواهر الاقتصادية المشتركة بين اكثر من شكل من الاشكال التاريخية للمجتمع الانساني - يقابلها قوانين اقتصادية (نظرية) مشتركة بين هذه الاشكال التاريخية للمجتمع (كقوانين التداول النقدي مثلا) - ولكن القوانين الاقتصادية التي تميز كل شكل من الاشكال التاريخية للمجتمع . وهي ما يمكن تسميتها بالقوانين النوعية ، اهم بمراحل من هذه القوانين المشتركة عند التعرف على طبيعة العملية الاقتصادية في شكل معين من هذه الاشكال . هذا ونأمل ان تصبح هذه النقطة

اكثر وضوحا عند دراستنا لفكرة طريقة الانتاج (٣٤) .

نخلص من ذلك بأن الاقتصاد السياسي علم له ذاتيته ، وبأن هذه الذاتية محددة على نحو يحول بيننا وبين خلط الاقتصادي السياسي بغيره من فروع المعرفة العلمية . بيد ان الذاتية لا تعني استقلال الاقتصاد السياسي عن هذه الفروع وخاصة تلك المتعلقة بالظواهر الاجتماعية الاخرى . لان الانسان ، الذي يتعلق موضوع الاقتصاد السياسي بنشاطه الاقتصادي ، يجمع بنشاطه في المجتمع كل مظاهر الحياة الاجتماعية . هذه الذاتية - لا الاستقلال - يمكن ان تتميز في مواجهة العلوم الاجتماعية الاخرى . وعلى الاخص علم الاجتماع ، وعلم السكان وعلم الجغرافيا البشرية .

سنحاول في الفصل القادم ان نتبين مكان الاقتصاد السياسي بالنسبة لفروع المعرفة العلمية هذه .

---

(٣٤) انظر الباب الثالث من هذا الجزء

الفصل الثالث

الاقتصاد السياسي وفروع العلوم الاجتماعية الاخرى

ليس تقسيم نشاطات الانسان عادة بالعمل المثمر ، اذ لايوجد بين هذه النشاطات خطوط واضحة تحدد نطاق كل منها وتفصل احدها عن الاخر . فالشخص الذي يمثل عضوا في اسرة يسهم في ذات الوقت في النشاط الاقتصادي كعامل في مصنع مثلا . وقد يكون عضوا في تنظيم نقابي او حزب سياسي مشاركا بذلك في النشاط السياسي كما انه قد يهوى القيام ببعض النشاط الفني وهكذا . الامر الذي تكون معه كل هذه النشاطات متداخلة . ينبني على ذلك انه لا يمكن دراسة اي مجال لنشاط الانسان دون الرجوع الى المجالات الاخرى ، وهو ما ينطبق من باب اولى على العلوم الاجتماعية التي يتعلق موضوعها بمختلف مظاهر النشاط الاجتماعي للانسان ، وهي بوصفها علوم تمثل فروع المعرفة التي تهدف الى فهم العلاقات بين افراد (وفئات وطبقات) المجتمع في تغيرها عبر الزمن (التاريخ ، الاقتصاد السياسي الجغرافيا ، علم الاجتماع ، علم النفس ، الديموجرافيا .. الخ [1] . ومع ذلك ولتسهيل عملية البحث العلمي وجد مع الزمن تقسيم مجرد للعلاقات الاجتماعية بمقتضاه تؤخذ كل طائفة من العلاقات الاجتماعية منفردة لينصب عليها موضوع فرع من فروع العلوم الاجتماعية .

انطلاقا من هذه الفكرة الاساسية لن يكون هدفنا في هذا الفصل تعريف العلوم الاجتماعية الاخرى في علاقتها بعلم الاقتصاد السياسي ، وانما ايضاح الاعتماد المتبادل بين فروع العلوم الاجتماعية عن طريق التركيز على الارتباط العضوي بين الاقتصاد السياسي وبعض فروع العلوم الاجتماعية الاخرى نأخذ على سبيل المثال وهي علم الاجتماع والديموجرافيا ، وعلم الجغرافيا .

---

(١) وهي على هذا النحو تتميز عن العلوم الطبيعية، الكيمياء ، الطبيعة ، الاحياء ، الجيولوجيا ، الفلك ..... الخ.

١ - الاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع

يعرف البعض علم الاجتماع انه " الدراسة الساعية لان تكون علمية لما هو اجتماعي (اى للوقائع الاجتماعية) بصفته هذه ، سواء على المستوى الأولى للعلاقات بين الأشخاص او على مستوى المجموعات الكبيرة ، الطبقات ، الامم ، الحضارات او بصفة عامة المجتمعات الكلية ، اذا ما استخدمنا تعبيرا اصبح جاريا " (٢) ولكن اذا ما اردنا تعريف علم الاجتماع تعريفا علميا قلنا انه علم القوانين العامة لتطور المجتمع الانساني (٣) .

---

(٢) R.Aron,Les Etapes de la Pensée Sociologiqye,EditionsGallimard1967p16

(٣) بما ان علم الاجتماع ما يزال محلا للخلاف (بالنسبة لموضوعه ومنهجه . انظر A Dictionary of Social Science المرجع السابق الاشارة اليه ص ١٧٦ - ١٧٩) يكون من المناسب ان نرى التعاريف المختلفة التي تعطى له اولا . تسند ابوة هذا العلم الذى يبدأ فى احضان فلسفة التاريخ الى عبدالرحمن ابن خلدون (الفيلسوف العربى الذى عاش من ١٣٣٢ الى ١٤٠٦م) والف "المقدمة (انظر فيما يلى الفصل الاول من الباب الثاني) وجيامباتستا فيكو Giambattista Vico (استاذ القانون بنابولى - ايطاليا . عاش من ١٦٦٨ الى ١٧٤٤ . ومؤلف العلم الجديد Scienza Nuova ويرى هذا الاخير الذى يعتنق على خلاف فلاسفة القرن الثامن عشر منهجا تاريخيا . ان المجتمع الانساني الذى هو من صنع الانسان ، يمكن فهمه والتعرف عليه, هذا المجتمع يمثل كلا غير ساكن . وانما فى حركة مستمرة. وحركة التاريخ هي التي تحدد المؤسسات الاجتماعية. هذا الكل (اى المجتمع) فى حركته هو محل اهتمام " العلم الجديد " انظر : T.G. Bergin & Fisch . The New science of Giambattista Vico,Anchor Books, Doubieday & Co: New York , 1961.

اما بالنسبة لأوجست كومت A.Comte (فيلسوب فرنسى ١٧٩٨ - ١٨٥٧) فعلم الاجتماع هو " الدراسة الوضعية لمجموع القوانين الاساسية الخاصة بالظواهر الاجتماعية" وهى تنقسم الى جزئين: جزء خاص بتحديد القوانين الساكنة. وهى القوانين المتعلقة بشروط وجود المجتمع . وجزء خاص =

فموضوع علم الاجتماع يتعلق اذن بالظواهر الاجتماعية بوصفها هذه، وذلك في حركتها الكلية . اما الفروع الاخرى من العلوم الاجتماعية فموضوعها يتعلق بظواهر هي اولا اجتماعية ولكنها تمثل بعد ذلك طائفة من الظواهر الاجتماعية : ظواهر اقتصادية في حالة علم الاقتصاد السياسي ، ظواهر سلوك الافراد في متضمناته الذهنية في حالة علم النفس ..... وهكذا .

فبينما يهتم الاقتصاد السياسي بطبيعة وتطور طائفة معينة من الظواهر الاجتماعية هي الظواهر الاقتصادية التي تكون الاساس الاقتصادي للمجتمع ، ممثلا

== بتحديد القوانين الديناميكية ، اي تلك المتعلقة بشروط الحركة المستمرة للمجتمع . انظر A.Cuviller,Manuel de Sociologie,P.U.F.TomeI.1967P16,17 وكذلك R.Aron المرجع السابق الاشارة اليه ، ص ١٠٤ - ١٠٥ ويعرف G.Gurvitch علم الاجتماع بانه العلم " الذي يدرس الظواهر الاجتماعية الكلية في مجموع مظاهرها وفي حركتها بأخذها في انماطها الديالكتيكية الميكرو - اجتماعية (النمط الوحدي) Micro-sociaux والمجموعية M.arco-sociaux والكلية Globaux وهي في اثناء تكوينها واختفائها " . واخيرا يعطينا C.W.Mills التعريف التالي في كتابه :

Sociological Imagination.Oxford University Press NewYork.959

" The study of historical life as occuring within and subject to the pressures of the complex whole of society as consitituted by its gighly structrual and organised of the complex

انظر في الاتجاهات الحالية في علم الاجتماع في اصلها التاريخي :

Paul Lazarsfield, La Sociologie,in,Tendances Principales de la recherche dans les sciences sociales et humaines . Mouton . Unesco Paris - la Haye ,1970,p. 69 - 197 .

بذلك علما اجتماعيا يخص هذا الجانب من حياة المجتمع ، يهتم علم الاجتماع بمجموع التكوين الاجتماعي في حركته ، آملا بذلك أن يكون علم حركة التكوينات الاجتماعية ، أي تحول المجتمع من شكل الى آخر . ومن ثم تتحدد أهمية أحدهما بالنسبة للآخر :

- بالمكان الذي يشغله النشاط الاقتصادي في مجموع النشاط الاجتماعي ، ومن ثم بتأثير الأساس الاقتصادي في تحديد الكل الاجتماعي .

- وكذلك العلاقة بين الاثنين اكثر ما تظهر في علم الاجتماعي الاقتصادي Sociologie économique . وهو فرع خاص من علم الاجتماع فاذا كان التحليل ينشغل ، وفقا لكولم D.Colm (٤) ، بمعرفة الكيفية التي يسلك بها الافراد (الطبقات) في كل لحظة والآثار التي تترتب على هذا السلوك ، فان علم الاجتماع الاقتصادي يحاول الاجابة على السؤال الخاص بمعرفة كيف انتهى هؤلاء الافراد (والطبقات) الى ان يسلكوا على النحو الذي يسلكون عليه . من هنا يزودنا علم الاجتماع الاقتصادي بالمعرفة الضرورية الخاصة بالاطار الاجتماعي الذي يمارس في ظله النشاط الاقتصادي (وهو الذي يتعلق به موضوع الاقتصاد السياسي) . وعليه تكون وظيفة علم الاجتماع الاقتصادي ، " أن يبين بدقة الشروط التاريخية والهيكلية التي تعمل في ظلها مختلف القوانين الاقتصادية ، وهو ما يعطي الاقتصاد السياسي فعالية وقدرة اكبر على التصرف " (٥)

٣ - الاقتصاد السياسي والديموجرافيا

الديموجرافيا (٦) فرع من فروع المعرفة يهتم بدراسة السكان : حالتها وحركتها

---

(٤) شومبيتر : تاريخ التحليل الاقتصادي ص ٢١ .

(٥) Ch.Bettehleim,Economie Politique et sociologie economique,Annales Juillet-septembre 1948,P.267et sqq

(٦) يوجد الاصل اللغوي للاصطلاح في الكلمة الاغريقية " Demos " مع المقطع " graphia " . ولهذه الكلمة معنيان في اللغة الاغريقية : فهي تعني أولا البلد ، أو الارض المسكونة بالسكان ، وتعني ثانيا : السكان انفسهم بتعريفهم الاتنولوجي (اي معرفين من ناحية الجنس ، وعلاقتهم =

عبر الزمن ، وما يزال الخلاف قائما بالنسبة للمظاهر السكانية التي يتعين أن تقتصر على التحليل العددي (المظاهر الكمية) لحالة وحركة السكان (٧) .

- بينما يرى آخرون ان تحتوى الديموجرافيا بالاضافة الى التحليل الكمي تحليلا كيفيا يتشغل بكيف الافراد من الناحية الجسمانية والذهنية والفكرية وكذلك بالنسبة لطباعهم وأخلاقهم (٨) .

= بالأجناس الاخرى ، وخصائصهم) . وهذا المعنى الثاني هو الذي يعنينا هنا . أما المقطع " Graphia " فانه يدل على "العلم الوصفي " . فاذا ما أخذنا اصطلاح الديموجرافيا بمعناه الحرفي فانه يعني " العلم الوصفي للسكان " . هذا وقد استخدم هذا الاصطلاح للمرة الاولى بواسطة Achille Guillard في كتابه : Eléments de statistique humaine ou démographie comparée,Paris 1855 cf.A.Landy,Traité de démographie,Payot,Paris,1945,P.7 et seqq.

(٧) في هذا الاتجاه نجد التعريف الذي تعطيه الموسوعة الكبرى (Grande Encyclopédie,Tome14P70) للديموجرافيا " كعلم يعالج بمساعدة الاحصاء الحياة الانسانية منظورا اليها بصفة أساسية من زاوية الميلاد والزواج والوفاة . ومن زاوية العلاقات التي تنشأ كنتيجة لهذه الظواهر ، وكذلك من زاوية الحالة العامة للسكان التي تترتب عليها " .

في نفس الاتجاه كذلك نجد تعريف Wolf في موسوعة العلوم الاجتماعية (Encyclopedia of Social Sciences) اقتطفت في مقام Sociologie et démographie,Population,1956,No 1.P. 84 - 85.

وكذلك تعريف Villey في :

Lecons de démographie ,I.Editions Montchrestin , 1957,p.17.

(٨) على هذا النحو يعرف Guillard الديموجرافيا " بالمعرفة الرياضية للسكان لحركتهم ، لحالتهم الجسمانية والمدنية والفكرية والأخلاقية " . أنظر Landry ، المرجع السابق الاشارة اليه ، وانظر كذلك تعريف :

L.Buget,cours de démographie.Les Cours de Driot,1965-1966,p. 3.

في الواقع يوجد بين الكيفي والكمي علاقات تأثير متبادل تستلزم أن نأخذ في الاعتبار على الأقل عددا من المظاهر الكيفية وذلك لكي تنضبط مترقتنا الكمية نفسها . فالخصائص الكيفية تؤثر على العدد عندما تباشر مفعولها =

أما فيما يتعلق بالمنهج فيستخدم في البحث الديموجرافي كل السبل التي يتبعها العقل في استخلاص المعرفة ، مع اضافة ان الطريقة الاحصائية تلعب دورا له أهمية خاصة في هذا البحث .

هذا بالنسبة لتقديم الديموجرافيا . وقد رأينا عند تعريف موضوع الاقتصاد السياسي ان الانسان هو الفاعل الرئيسي في النشاط الاقتصادي ، اذ يمثل ما يقوم به من عمل محور عملية الانتاج في المجتمع . فاذا ما كان الأمر كذلك فان العوامل الديموجرافية تؤثر دون شك على النشاط الاقتصادي ، اذ هي تحدد له شروطه الأساسية القوة العاملة كما وكيفا ، وكذلك مدى الحاجات التي يمثل اشباعها الهدف النهائي للنشاط الاقتصادي .

من ناحية اخر تؤثر العوامل الاقتصادية تأثيرا عميقا على كيفية توزيع السكان كميا وكيفيا [٩] توزيعا جغرافيا ، وعلى الكثافة السكانية وعلى أشكال التجميع

== كما هو الحال بالنسبة للخصائص الجسمانية بالنسبة للمواليد او الوفيات . وكذلك يؤثر العدد على الخصائص الكيفية لأفراد السكان عن طريق تحديده لشروط الحياة لهؤلاء الأفراد . مثال ذلك الآثار التي يمكن أن تكون لعدد أفراد الاسرة على تكوين أطفالها ومن ثم على كيفهم .

(٩) وذلك عن طريق زيادة عدد افراد المجموعة البشرية في السكان الموجودين عليه ، من ناحية ، وعن طريق اثارة انتقال السكان الى مكان آخر ، من ناحية اخرى . (تم ذلك في أوربا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عن طريق خلق مستعمرات جديدة انتقل اليها جزء من سكان أوربا) .

الانساني ، وهي تؤثر كذلك على الموقف من الانجاب . كما تؤثر العوامل الاقتصادية عن طريق تحديدها للشروط المادية للحياة، على المواليد والوفيات ومتوسط العمر . الى غير ذلك (١٠) .

٣ ـ الاقتصاد السياسي والجغرافيا

الجغرافيا (١١) هي دراسة العالم كوسط يعيش فيه الانسان ، أي كبيئة طبيعية للجنس البشري (١٢) . أما **الجغرافية البشرية** فيتعلق موضوعها بالعلاقة بين سلوك الجماعات البشرية والوسط الطبيعي والمناخي ، وبما أن هذه البيئة هي في الواقع ولحد كبير ، من خلق الجماعات البشرية الماضية والحاضرة يتمثل موضوع الدراسة في الجغرافيا البشرية في العلاقات المتبادلة بين الجماعات البشرية والبيئة وتشكيل أحدهما بواسطة الآخر (١٣) .

والنقطة التي يلتقي عندها هذين الفرعين من فروع المعرفة (الاقتصاد السياسي والجغرافيا) هي تلك الخاصة **بتوطن النشاط الاقتصادي** (١٤) (والوحدات

---

(١٠) هذا وقد كانت النظرية السكانية تمثل في البداية (من ويليام بتي الى مالتس انظر ما يأتي في الباب الثاني من هذا الجزء) بابا أساسيا في مؤلفات الاقتصاد السياسي، ثم ترك بعد ذلك الاهتمام بالدراسات السكانية للاحصائيين .

(١١) يوجد الاصل اللغوي للاصطلاح في الكلمة الاغريقية ge والمقطع graphia وهذه الكلمة تعني الارض . ويدل هذا المقطع على اننا بصدد علم وصفي . فاذا ما أخذ الاصطلاح بمعناه الحرفي فانه يدل على " العلم الوصفي للأرض " .

(١٢) لا يوجد علم آخر يهتم بالبيئة بصفتها هذه : فرجل الجيولوجيا يدرس صخور القشرة الارضية . ورجل الارصاد الجوية يهتم بالمناخ والطقس . ورجل النبات يهتم بحياة النباتات . ويهتم رجل الحيوان بحياة الحيوانات . اما رجل الجغرافيا فهو في حاجة الى نتائج كل علم من هذه العلوم ليستطيع أن يتعرف على المسرح الذي يعيش عليه الانسان ويلعب دورا . هذا المسرح ككل ملموس وحي . انظر : L.D.Stamp,Modern Geographical Ideas , in Outline of modern knowledge,W.Rose(ed),V.Gollaoz,London,1931P.813 et sqq.

(١٣) P,George,Georaphie de la population et démorraphic.population,1950

(١٤) The location of economic activity,la localisation de l'activité économique .

الانتاجية لهذا النشاط) . الأمر هنا يتعلق بما يسمى التحليل الاقتصادى للمكان (١٥) هنا يزودنا علم الجغرافيا بالمعرفة الخاصة بالوسط الطبيعى للنشاط الاقتصادى . فهو يمدنا بمعلومات عن مصادر المواد الأولية ، عن مصادر الطاقة المحركة وعن التجمعات السكانية (مصدر القوة العاملة بكمها وكيفها) . من ناحية اخرى تساعد المعرفة النظرية الخاصة بالنشاط الاقتصادي على فهم أحد العوامل ، ان لم يكن أكثرها ، تشكيلا للوسط الجغرافي : ألا وهو النشاط الاقتصادى للمجتمعات . هذه المعرفة لا يستغنى عنها اذن الباحث فى مجال الجغرافيا البشرية (١٦) .

* * *

من هذا يتضح ان الواقع الاقتصادى مرتبط ارتباطا ديالكتيكيا بالواقع غير الاقتصادى ليكونا كلا عضويا يمثل الحياة الاجتماعية فى وسطها الجغرافي . يترتب على ذلك أن **الاقتصاد السياسى الذى يهتم بالواقع الاقتصادى فى حركته التاريخية يتعين أن يدرس ، رغم ذاتيته ، فى ارتباطه الوثيق بغيره من فروع العلوم الاجتماعية .**

* * *

---

(١٥) Space economy: L´analyse économique dans l´espace .

انظر على سبيل المثال وخاصة فيما يتعلق بالدراسة النظرية للتحليل الاقتصادى للمكان بالنسبة للنشاط الزراعى : J.H.Von Thunen, Isolated State, Pergamon Press, London , 1966.

(١٦) هذا النوع من الدراسة يتم فى اطار ما يعرف بالجغرافيا الاقتصادية التى تتشغل بأشكال الانتاج وأشكال توطن النشاط الاقتصادى فى المكان وأشكال استهلاك المنتجات المختلفة فى العالم بأسره فهى تهتم :
- بالتوزيع الكيفى والكمى للتجمعات البشرية على الكرة الارضية .
- بدراسة اشكال الانتاج والاستهلاك فى ارتباطه بالانتاج بهذه التجمعات البشرية وفقا للهيكل الاقتصادى لكل تجمع منها ، وكذلك العلاقات التى تنشأ بين هذه التجمعات بما تستتبعه هذه العلاقات من تنظيمات ونشاطات نقل وما يلحق بها . انظر فى ذلك :
P.George , prçeis de gérographie économique. P.U.F , 1962.

وهكذا يتم لنا تعريف الاقتصاد السياسي ، العلم الذي نقوم بدراسته : عن طريق تحديد معالم موضوعه ومنهجه في ارتباطهما العضوي . هذا العلم هو فرع من فـــروع العلوم الاجتماعية بما بينها من اعتماد متبادل يتعين ألا يغيب عن أذهاننا في دراستنا لعلم الاقتصاد السياسي . تكوين علمنا هذا ، أي التمهيد لميلاده ثم مولده وتطوره ، لم يتم بعفوية وضحاها . وانما من خلال عملية تاريخية دارت - وما زالت تدور - بيـــن استمرار وانقطاع وتقدم من خلال التناقضات ، تقدم لا يجري بأية حال على نحو خطـــي لا يعرف الانكسارات . التعرف على الملامح العريضة لهذه العملية التاريخية يزيـــد من انضباط تحديدنا لآفاق العلم ويسمح لنا بأن نألف من الآن أسماء كبار مفكريـــــه ، تحقيق هذا التعرف هو ما نسعى اليه في الباب التالي .

R.Courtin & P.Maillet ,Economie géographique , Dalloz , 1962 .

الباب الثانى

تاريخ الاقتصاد السياسى

لا نهدف لدراستنا في هذا الباب أن تكون تتبعا مفصلا للفكر الاقتصادي في تاريخه الطويل ، الأمر الذي لا يمكن أن يتم الا في دراسة منفصلة تأخذ ما تستحقه من جهد ووقت (١) . ما نسعى الى تقديمه هنا لا يتعدى لمحة في تاريخ علم الاقتصاد السياسي ذات هدف محدود ، تمكننا من البداية :

- من التعرف على المراحل المختلفة لتاريخ العلم الذي نتشغل به .
- وتشير لنا الى القضايا الاساسية التي شغلت اذهان المفكرين الذين بنوا العلم مفسحة المجال لبلورة موضوع العلم ورسم مناهجه وتراكم المعرفة النظرية المكونة له .

الذي يهمنا اذن هو تأريخ العلم وليس تاريخ الفكر الاقتصادي على اطلاقه . وقد تحقق للعلم وجود معترف به من خلال عملية بطيئة تغطي الفترة التي تمتد من منتصف القرن السابع عشر حتى النصف الاول من القرن التاسع عشر (٢)

---

(١) تتميز الكتابات المتعلقة بتاريخ الفكر الاقتصادي بثراء نسبي ، بالاضافة الى مؤلفات المفكرين الذين بنوا علم الاقتصاد السياسي والتي سنتعرف عليها في هذه الدراسة . لتاريخ العلم يمكن الرجوع الى المراجع التالية :

H.Bartoli, Histoire de la pensee econpmoique , les Cours de Droit, 1959 - 1960 -J.Denis,Histoire de la pensée économique.Thémis,1970 - Ch.Gide & Rist,Histoire des doctrines économiques - O.Lange , Economie Politique ,P.U.F., 1962(Ch.VI,VII,P. 389) .

هذا الكتاب صدر باللغة العربية من ترجمة راشد البراوي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٦ .

(٢) شومبيتر ، تاريخ التحليل الاقتصادي ، ص ٥١ .

ولكن الفترة السابقة عليها شهدت ، مع نشوء طريقة الانتاج الرأسمالية ، تحولا في الفكر الاقتصادى مهد لميلاد العلم ميلادا صاحب هذه الطريقة في الانتاج . اهتمامنا أساسا بتاريخ العلم وكون ميلاده مصاحبا لطريقة الانتاج الرأسمالية يبرر لنا ان نميز في تقديمنا لهذه اللمحة التاريخية بين مرحلة سابقة على الرأسمالية شهدت فكرا اقتصاديا (اذ منذ انشغال الانسان بمعرفة وسطه الطبيعى والاجتماعى وجد فكر اقتصادى) . والمرحلة الرأسمالية التي يرتبط بها علم الاقتصاد السياسى . في فترة اولى من هذه المرحلة الأخيرة ولد علم الاقتصاد السياسى بعد ان مهد السبيل لهذا الميلاد ثم تطور في فترة تالية تطورا استمر الى وقتنا هذا الذى يسجل مرحلة الانتقال الى الاشتراكية .

وعليه نقدم هذه اللمحة التاريخية في فصول ثلاثة :

- في فصل اول نلقى نظرة سريعة على الفكر الاقتصادى في المرحلة السابقة على الرأسمالية .
- وفي فصل ثان نرى مولد علم الاقتصاد السياسى في المرحلة الرأسمالية .
- وفي فصل ثالث نتتبع تطور العلم في المرحلة الرأسمالية ومرحلة التحول الى الاشتراكية .

الفصل الأول

الفكر الاقتصادي في المرحلة السابقة على الرأسمالية

في أثناء هذه المرحلة - التي تغطي العصور القديمة والعصور الوسطى - لم يكن للفكر الاقتصادي وجود مستقل ، وانما نجده في أحضان أشكال أخرى للفكر : في احضان الفلسفة في الفكر الاغريقي ، في أحضان الفكر اللاهوتي في العصور الوسطى الأوربية ، وفي أحضان دراسة التاريخ وفلسفة التاريخ عند المفكرين العرب في القرن الرابع عشر .

١ - العصور القديمة

في **الكتب المقدسة للعصور القديمة** يتمثل الفكر الاقتصادي في انطباعات تتعلق بالوقائع التي وجدت بالمجتمع في تلك الأزمنة ، هي انطباعات ايديولوجية لا شأن لها بالتحليل العلمي . عليه يكون من الأصح اعتبارها من قبيل المعلومات الخاصة بما كان يجري في الحياة الاقتصادية للمجتمع في ذلك الزمان[١] .

وعند الاغريق (خاصة عند أفلاطون ٤٢٧ - ٣٤٧ قبل الميلاد وأرسطو ٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد) وجد الفكر الاقتصادي في أحضان الفلسفة . اذ مثل الاستدلال الاقتصادي جزءا لا يتجزأ من فلسفتهم العامة للدولة والمجتمع . المجتمع المنظم في صورة **دولة المدينة** City-State (تتميز بصغر مساحتها وصغر حجم سكانها وقيامها حول القلعة التي عادة ما كانت تبني على مرتفع ، واشتمالها على ميدان عام للاجتماعات العامة) . وهو تنظيم فرضته جغرافية اليونان ونوع التنظيم القبلي الذي كان غالبا من قبل[٢] ، ويجد اساسه في **طريقة الانتاج** التي كانت سائدة آنذاك وخاصة في القرنين الخامس والرابع (قبل الميلاد) في بلاد الاغريق بصفة عامة وفي أثينا بصفة خاصة . أي في الزمان والمكان اللذان شهدا فكر

---

(١) القارىء للتوراة أو الانجيل يستطيع أن يجمع معلومات عن أحداث المجتمع . انطباعات تعطي فكرة عن نوع الحياة . فمن قصة يوسف مثلا نستطيع أن نستخلص كيف أن فرعون الذي كان يملك الأرض ويحصل في مقابل ذلك على خمس المحصول كان يحتكر الاتجار في الحبوب . وفي وقت المجاعة كان الناس يشترون الحبوب بالنقود . فان نفذت نقودهم حصلوا عليها مقايضة بالتخلي عن حيوانهم وقطعانهم . أنظر :

Ch 27. the Genesis. The Egyptians sell their land. The Holy Bible. Cambridge Universisty Press, P 43.
J.F. Bell, A History of Economic Thought. The Boland press. New York. 1953. p. 13 et sqq — E. Roll, ch. I.

(٢) أنظر في تفصيل هذا التنظيم القبلي وفي وصف عملية التحول من هذا الذي لم يعرف الدولة (المكون من مجموعة قرى بينها قرية مركزية يقيم بها رئيس القبيلة « صاحب السلطة المشخصة » وكل قرية مكونة من عشائر) الى مجتمع دولة المدينة :

G. Thomson, Studies in Ancient Greek Society. Lawrence & Wishart, London, Vol. I. 1961, p. 351 - 359.

أفلاطون وأرسطو طاليس[٣] . النشاط الزراعي يتم في ظروف طبيعية صعبة : التربة فقيرة ، الأمر الذي يستلزم زراعتها سنة وتركها دون زراعة أخرى . وهي نادرا ما تكون مستوية ، وهو ما يدفع الى عمل المصاطب تزرع أساسا بأشجار العنب والتين والزيتون . بالنسبة لنوع الوحدة الانتاجية في الزراعة يمكن تمييز ثلاثة أنواع : وحدات كبار الملاك ويملكون الأرض الأكثر خصوبة ، وتزرع بالحبوب وتربى عليها الماشية والخيول وهم لا يسهمون في عملية العمل وانما يستخدمون العبيد والعمال الأجراء الذين يخضعون لسيطرة المالك رغم أنهم أحرار . هذه الملكيات الكبيرة لا تغطي الا نسبة صغيرة من مساحة الأرض المتزرعة . غالبية هذه الأرض تزرعها وحدات صغار الملاك . عددها كبير . تحتوي نصف السكان أو يزيد . المساحة التي تقوم عليها كل وحدة صغيرة وغالبا مجزئة . يتم الانتاج بفضل عمل أفراد الأسرة وعمل ما تملكه من عبيد مستخدمين في ذلك وسائل الانتاج البسيطة . هؤلاء الملاك الصغار يجدون أنفسهم تحت سيطرة من يجاورهم من ملاك كبار (وهؤلاء هم الصفوة في الريف . وحتى في المدينة) رغم كونهم مواطنين . الى جانب هذين النوعين من الوحدات الانتاجية كانت توجد الوحدات التي يستغلها الأفراد استخداما لعبيد الدولة heilos [٤] في مقابل حصولها على جزء من المحصول عينا . وقد تقوم الدولة (في سبرطة) - ولها هي فقط هذا الحق - بتحرير عبيدها . في هذه الحالة يقوم كل منهم بزراعة قطعة من الأرض . يزرعها كما يشاء . وله حرية تكوين أسرة تفلح معه الأرض يلتزم بأن يتخلى للدولة عن حصة من الناتج تتحدد لمدى الحياة . وله حرية التصرف فيما يبقى له .

هذه الزراعة لا تستطيع أن تغطي احتياجات السكان وخاصة من الحبوب . ومن ثم كان الالتجاء الى الخارج (صقلية ، ايطاليا ، مصر ، سواحل البحر الأسود) وقيام **التجارة الخارجية** التي تركزت في المدن وخاصة الموانئ . وقد ازدهرت في أثينا لتصبح نشاطا أساسيا يقوم به أساسا أشخاص لا يتمتعون **بصفة المواطن ويرتكز على رأس مال المقرضين** . عن طريق التجارة الخارجية كان يتم تزويد السكان بثلثي أو ثلاثة أرباع ما يستهلكونه من الحبوب .

---

(٣) استعنا في تقديم هذه الصورة لواقع المجتمع الأغريقي في هذه الآونة بالمراجع التالية :

A Aymard & J. Auboyer, Histoire Général des Civilisations, L'Orient et la Crece Antique, P.U.F., 1961, p. 321 – 334 — G. Thomson, Studies in Ancient Greek Society: The First Philosophers, Lawrence & Wishart, London, 1961 – 207 — A.G. Mazour & J.M. Peoples, Men and Nations. A World History, Harcourt, Brace & World, Inc, New York, 1968, Chs. 5 & 6, p. 82 – 122 — M.L. Finley; Classical Greece, in Second International Conference of Economic History, Vol, Mouton, Paris — La Haye, 1965, p. 11 – 35 — E. Will, La Grece archaique,

(٤) helots, ilotes (hilotes) : هؤلاء كانوا يلزمون بالقيام ببعض الخدمات المنزلية وبخدمة المحاربين أثناء الحرب ولم يكن يحق لهم حمل السلاح . وكان للمواطنين حق قتلهم اذا قابلوهم أثناء الليل .

لكي تستورد الحبوب لابد من التصدير . تصدير بعض السلع الزراعية . كالخمور والزيوت . ولكنها لا تكفي . من هنا كان الالتجاء الى النشاط الصناعي ليزود التجارة بعدد من السلع : الأواني ، الأسلحة قطع العملات المعدنية . ومن ثم كان توسع النشاط الصناعي وما يستلزمه من نشاط استخراجي . يقوم بهذا النشاط وحدات حرفية وورش صغيرة مملوكة ملكية خاصة . عدد الوحدات الحرفية كبير . يقوم الحرفي مع أفراد عائلته بالعمل . يعاونه في ذلك العبيد . كما أنه قد يستخدم بعض العمل الأجير . يتم الانتاج في منزل الحرفي بناء على طلب مسبق من جانب العملاء ، الذين كثيرا ما يزودون الحرفي بالمواد الأولية . تقوم الورش الصغيرة كذلك بالانتاج الصناعي . أكبر ورشة كانت تستخدم ١٢٠ عامل (في صناعة الدروع) . العمل يقوم به العمال الأجراء والعبيد . هذا النشاط الصناعي كان يعتمد في كثير من مواده الأولية على التجارة الخارجية .

أما النشاط الاستخراجي . ومثله ما كان يتم في منطقة لوريون (التابعة لأثينا) في المناجم المملوكة للدولة . حيث تعهد الدولة بامتياز الاستغلال الى أفراد يملكون رأس المال . على أن تحتكر لنفسها التعامل في الفضة المستخلصة مع الرصاص المخلوط بالفضة المستخرجة من المناجم . هذا النشاط الاستخراجي يقوم على عمل العبيد الذين يملكهم صاحب الامتياز أو يستأجرهم من مالكيهم .

في هذا الاقتصاد ، الذي يرتكز عليه المجتمع الأغريقي ، انتشرت المبادلة والمبادلة النقدية . بل أكثر من هذا أن النقود ، التي أخترعت في البداية لتسهيل عملية التبادل : لتستخدم في البيع من أجل الشراء ، أصبحت تستخدم في اطار هذا الاقتصاد لغرض جديد : الشراء من أجل البيع . في هذه الحالة يكف جمع النقود عن أن يكون وسيلة لتحقيق غاية (هي الحصول على السلع) وانما يصبح غاية في ذاته .

من هذا نستطيع أن نستخلص التركيب الطبقي للمجتمع الأغريقي . في أعلى الهرم الاجتماعي توجد الطبقة الارستقراطية ، كبار الملاك ، من « الريعيين » الذين يعيشون على دخل لم يسهموا في عملية انتاجه . يحتقرون العمل اليدوي ويحكمون مجتمع المدينة . يرتبط بهذه الطبقة بقية المواطنين ، المكونين لطبقة متوسطة من صغار الملاك والحرفيين ، لهم حقوق سياسية وحق تولي الوظائف العامة (أي المشاركة في ادارة المدينة) . يلتصق بهذه الأخيرة الأجانب metoikos (٥) ، وهم أحرار ولكنهم لا يتمتعون بالحقوق السياسية ولا يحق لهم تملك العقارات . وقد لعبوا دورا هاما في التجارة والمهن الأخرى في المدينة (سيطروا

---

(٥) métèques

علي النشاط التجاري في القرن الرابع قبل الميلاد) وكذلك في الحياة الأدبية . وقد تعدي دورهم هذا نسبتهم العددية في مجموع السكان . وفي النهاية يرتكز هذا الهرم الاجتماعي علي العبيد ، اذ عليهم يقوم الانتاج الزراعي والصناعي ونشاط التعدين والأشغال العامة للدولة . وهم يقومون بالأعمال المنزلية وبخدمة المحاربين في وقت الحرب . هذا الدور هو الذي يفسر كيف أن تجارة العبيد أصبحت احدي النشاطات الاقتصادية المربحة . ومن هنا صح القول بأن المجتمع الأغريقي (وخاصة في القرن الخامس ق . م .) مجتمع قائم علي العبودية . وذلك رغم أن بعض المؤرخين ، في حرصهم علي تقديم المجتمع الأغريقي القديم في صورة وردية ، يقللون من أهمية العبودية كأساس لهذا المجتمع[٦] .

هذا التنظيم لعملية الانتاج القائم علي عمل العبيد ينطوي في ثناياه علي حدوده ، أي حدود امكانياته في التطور . كتنظيم يجرد المنتجين المباشرين (العبيد) من كل دافع الي زيادة وتحسين المجهد اللازم لاستغلال وسائل الانتاج المستحدثة (عن طريق الاكتشاف أو النقل) استغلالا يمكن من زيادة انتاجية العمل علي نحو يمكنها من الاستجابة لحاجات المجتمع (وخاصة الطبقة المالكة) المتزايدة . بل علي العكس يتجه ميلهم الي تحطيم وسائل الانتاج كرد فعل لما يخضعون له من استغلال وقهر .

في هذا المجتمع وجد **الفكر الاقتصادي في أحضان الفلسفة** ، اذ ندر أن نوقشت المشكلات الاقتصادية بوصفها هذه . بل دارت الأفكار المتعلقة بها - شأن كل الفكر الأغريقي - حول المشكلات الملموسة لحياة الانسان . وقد كانت هذه المشكلات الأخيرة تجد مركزها في فكرة دولة المدينة "Polis" . من هنا كان الفكر الاقتصادي بكليته في خدمة

---

(٦) ترتكز الانتاج علي عمل العبيد (وكونهم بالتالي أساس الهرم الاجتماعي) هو الذي يفسر تبرير أرسطو للعبودية كتنظيم اجتماعي . وهو يتم هذا التبرير علي حجة اقتصادية حين يقول ، البعض يعتبر أن سلطة السيد لا تستند علي اساس طبيعي ورسمي أو الطبيعة قد خلقتنا كلنا أحرارا وأن العبودية لا موجبها الا ناتون الأقوي وأنها في ذاتها . وباعتبارها مجرد أثر للعنف ، غير عادلة . من وجهة النظر الاقتصادية . يلاحظ أنه من غير الممكن أن نعيش عيشة مرضية ، أو حتي مجرد أن نعيش دون ما هو ضروري . ورغما أنه لا يمكن تحقيق الهدف المحدد لأي نشاط دون أدوات ، فان الانتاج يحتاج الي الأدوات لتحقيق اهدافه . وبوجه عام من الأدوات ، أدوات جامدة وأدوات حية . فبالنسبة للملاحة تمثل الدفة الأداة الجامدة والقبطان الأداة الحية . ويمثل العامل في كل أنواع الفنون نوعا من الأداة . ومثال معين هو في الواقع أداة وجود . وعموم المستلكات هي أدوات بوجه عام ، والعبد من بينها يندرج في أداة حية بملوكة تفوق كل الأدوات الأخري . فلو كان في استطاعة كل اداة أن تنفذ من تلقاء نفسها ارادة أو فكر السيد ... لما احتاج المهندس الي العمال ولا السيد الي العبيد » . كما أن أرسطو يضيف في تبرير العبودية حجة فلسفية : « كل من ليس لديه ما يقدمه الا جهد من استعمال جسمه وأعضائه مدان بواسطة الطبيعة للعبودية . وخير له أن يخدما من أن يترك لنفسه . وفي كلمة ، كل من ليس عنده من الروح والوسائل ما يمكنه من عدم الاعتماد علي الغير هو بطبيعته عبد . وهو من هؤلاء الذين لا يملكون الا الغريزة ، أي الذين يشعرون جيدا بالعقل لدي الآخرين ، ولكنهم لا يستعملونه أنفسهم » . السياسة . الكتاب الأول . الباب الأول .

السياسة بالمعني الواسع للكلمة[٧] .

في اطار الفكر الاغريقي ينفرد أرسطو طاليس بمقدرة فائقة علي التغلغل في تحليل الظواهر الاقتصادية . وهو يري « الوقائع الاقتصادية والعلاقات التي توجد بينها في ضوء ايديولوجية رجل يعيش ويكتب لطبقة مترفة (لا تعمل) ومثقفة ، لطبقة تحتقر العمل والتجارة وتحب الفلاحين الذين يغذونها وتكره مقرضي النقود الذين يستغلونها »[٨] .

ويرتكز التحليل الاقتصادي لأرسطو مباشرة علي الحاجات واشباعها . والأموال (أي المنتجات) هي التي تحقق هذا الاشباع . وطرق الحصول علي الأموال هي الزراعة وتربية المواشي والصيد بمختلف أنواعه وحتي قطع الطريق (الذي يعتبره نوعا من الصيد) وكذلك الصناعة واستخراج المعادن . هذه كلها تعتبر من قبيل الطرق الطبيعية لاكتساب الأموال[٩] . الي جانبها توجد التجارة ، وهي ليست بالنسبة لارسطو من قبيل النشاط الطبيعي (ومن ثم وجبت ادانتها)[١٠] .

فيما يتعلق بوحدة القيام بهذه النشاطات (الوحدة الانتاجية) ينطلق أرسطو من الوحدات العائلية التي تكتفي ذاتيا ، أي تقوم بالانتاج اللازم لاشباع حاجاتها (الانتاج الطبيعي)[١١] . ثم يقدم تقسيم العمل كأساس للمبادلة العينية ، المقايضة[١٢] ، ثم المبادلة

---

(٧) Platon, The Republic (H.D.P. Lee), The Penguin Classics London, 1959 — Aristote, La Politique, traduit par J. Tricot. Librairies Philosophique, J. Vrin, Paris, 1962, Les Economiques même traducteur et même maison d'édition, 1958; Ethique de nicomaque, traduit par J. Voilquin, Garnier, Flammanion, Paris 1963 — A. Wolf A Philisophic and Scientific Retrospect, in An Outline of Modern Knowledge, op. cit., p. 9 & sqq — B. Russell, History of Western Philosophy, 10th edition, Allen & Unwin, London, 1967, Book one, Part 2.

(٨) شومبتر ، تاريخ التحليل الاقتصادي ، ص ٦٠ .

(٩) أرسطو ، السياسة ، الجزء الأول ، الكتاب الأول ، الفصل الثامن ، ص ٥٠ـ٥٥ . أنظر كذلك Les Economiques ص ٢٠ .

(١٠) أرسطو ، السياسة ، المرجع السابق ، ص ٥٥ و ٦٥ حيث يقول : « ان التجارة ليس فيها شيء طبيعي ، فهي نتيجة المبادلة » . ادانة النشاط التجاري هذه يمكن لنا فهمها اذا ما تذكرنا أولا أن النشاط التجاري كان يمارسه أساسا الأجانب الذين لا يتمتعون بصفة المواطن ، وأنه كان يرتكز علي رأس مال المقرضين . واذا ما تذكرنا ثانيا أن أرسطو كان يعيش ويكتب للطبقة الارستقراطية التي تكره التاجر مقرض النقود لأنه يستغلها

(١١) المرجع السابق ، ص ٥٧ .

(١٢) لم تظهر عملية مبادلة السلع في داخل الجماعات البدائية . وانما ظهرت علي حدود هذه الجماعات ، عندما تدر من نقاط التقاء مع جماعات أخري . أي أن المبادلة بدأت بين الجماعات البدائية (التي تختلف الظروف الطبيعية التي تقوم في ظلها بالنشاط الانتاجي) وليس في داخل الجماعة نفسها . هنا بدأت المقايضة التي سرعان ما تحقق آثار في داخل الجماعة نفسها وتؤدي الي تفككها . وفقا لأرسطو ، « كان كل أفراد الجماعة البدائية يملكون كل الأشياء ملكية شائعة (ومن ثم لا مبادلة . م.د) . فاذا ما انقسموا لعائلات متميزة احتفظوا بالملكية الشائعة لعديد من الأموال وقاموا بتقسيم الأموال الأخري التي تكون وفقا للحاجة محلا للمبادلة بينها » . السياسة ، ص ٥٧ .

النقدية . أي تبادل السلع بوساطة النقود[١٣] .

فاذا ما تعلق الأمر بانتاج المبادلة النقدية ، بانتاج السلع التي تتبادل في السوق ، نرجح أن هذه السلع في السوق بأثمان يتعين تفسيرها والتعرف على تحديدها . في هذا المجال يحذونا أرسطو عن قيمة السلع[١٤] (والقيمة هي خصيصة اجتماعية تجعل السلعة محلا للمبادلة م.د. [١٥] . ومنها نجده يفرق بين قيمة الاستعمال[١٦] (التي هي خصيصة موضوعية في السلعة تجعلها صالحة لاشباع حاجة معينة ، م.ا.) وقيمة المبادلة[١٧] (وهي الشكل الذي تعبر فيه القيمة عن نفسها عند المبادلة ، رابطة بين قيمتين ، م.د.) . ثم هو يقول بفكرتين متضاربتين . مؤدى الفكرة الأولى أن قيمة المبادلة تشتق بطريقة أو بأخرى من قيمة الاستعمال . يضاف الى ذلك « أنه من الضروري أن نجد مقياسا مشتركا » بين الأشياء المتبادلة . « وهذا المقياس المشترك هو بالضبط احتياج أحدنا الى الآخر . وهو ما يبقى على وجود الحياة الاجتماعية[١٨] . وفقا للفكرة الأخرى التي نجدها عند أرسطو يتم تصور تبادل

---

(١٣) أرسطو . السياسة . ص ٥٧ . هذا وتجدر الملاحظة أن الأبواب الخمسة الأولى من كتاب آدم سميث الذي يظهر بعد في القرن الثامن عشر الميلادي (في انجلترا) تمثل تطويرا لهذا الخط في الاستدلال العقلي . هذا ومن المفيد من الآن أن نتصور العناصر التي تتكون منها كل معاملة نقدية . ولنتمثل في بيع منزل : هناك أولا متبادلان (البائع والمشتري) تقوم بينهما علاقة اجتماعية يقتضاها يتخلى البائع للمشتري عن كمية من السلعة (المنزل في هذه الحالة) . أو ما يسمى بتدفق عيني real flow: flux réel . في مقابل ذلك يتخلى المشتري للبائع عن كمية من النقود (عدد من وحدات النقود) . أو ما يسمى بتدفق نقدي monetary flow: flux monétaire . العلاقة بين مقدار التدفق العيني (وحدة واحدة في مثلنا هذا . المنزل) وبين مقدار التدفق النقدي وليكن ٣٠٠٠ جنيه . تدل على ثمن الوحدة من السلعة محل التبادل . ثلاثة آلاف جنيه في مثلنا هذا .

(١٤) بما أن الهدف النهائي من النشاط الاقتصادي هو اشباع الحاجات فان المنتجات التي تنتج عن هذا النشاط تتسع دائما بقيمة في الاستعمال . أي بصلاحية لاشباع حاجة معينة . فهي منتجات نافعة . هذه الصلاحية ترد الى الخصائص الطبيعية للمواد التي تدخل في انتاج الناتج والى خصائص العمل الفردي الملموس الذي قام بانتاجه . هذه الخصائص مجتمعة تجعل الناتج صالحا لاشباع حاجة معينة دون غيرها من الحاجات (فالقلم الرصاص مثلا يصنع للاستعمال في الكتابة لأنه يصنع من مادة من طبيعتها أن تترك أثرا على الورق ولأنه أنتج بنوع من العمل له من الخصائص (الخبرة والمعرفة الفنيتين) ما يعطيه الشكل الذي يجعله ملائما للامساك به بقصد الكتابة) . وتمثل المنتجات قيمة استعمال في ظل كل أشكال الانتاج : الانتاج الطبيعي وانتاج المبادلة . ولكن منذ أن يبدأ انتاج المبادلة تصبح المنتجات سلعا . اذ تبدأ في أن يكون لها . الى جانب قيمة الاستعمال . قيمة . أي قابلية لأن تكون محلا لعلاقة مبادلة بين أفراد المجتمع . في هذا المجال تكون قيمة الاستعمال شرط القيمة : اذ لكي يمكن للسلعة أن تكون محلا للمبادلة لا بد أن تمثل قيمة استعمال اجتماعية . أن تكون نافعة اجتماعيا . أي أن تكون نافعة للآخرين . في اقتصاد المبادلة تكون السلعة في ذات الوقت قيمة استعمال وقيمة . ولكن أحدهما نقيض الآخر . أو أن شئت نفيا للآخر : ان أنت استعملت السلعة كقيمة استعمال (في استهلاكك الخاص . كما اذ استخدمت الفحم في التدفئة المنزلية أو في الانتاج باستخدامه في توليد الطاقة الانتاجية في مصنع) فانك تكون قد استبعدت امكانية استخدامها كقيمة . أي أن تقوم بدور في التبادل . من جهة أخرى ، ان أنت استخدمت سلعة في تبادلها (مشتريا في صفة منتجة أو غير مشترية ، بائعا بقصد الربح) فانك حرمت نفسك من استخدامها كقيمة استعمال .

(١٥) م.د. ترمز لاسم المؤلف أي محمد دويدار .

(١٦) use-value; valeur d'usage

(١٧) exchange-value; valeur d'échange

(١٨) الأخلاق . ص ١٣٤ .

السلع كتبادل بين الأعمال . فلكي تقوم علاقة مبادلة بين المهندس المعماري وصانع الأحذية « يتعين أن يحصل المهندس من صانع الأحذية على عمله ، وأن يعطيه عمله كمقابل »[١٩] . أيا ما كان فكر أرسطو بالنسبة لمصدر القيمة فمن الواضح أنه اكتشف في قيمة المبادلة (كتعبير عن قيمة السلع ، م.د.) علاقة تساوي . ولكنه لم يتعد ذلك الى الكشف عن حقيقة هذا التساوي[٢٠] .

تلك هي الحدود التي لا يتخطاها أرسطو في مجال القيمة والثمن . فلا نوجد عنده نظرية للثمن (الذي هو التعبير النقدي عن قيمة المبادلة م.د.)[٢١] . ومع ذلك فهو يتعرض لحالة الاحتكار الذي يعتبره وضعا من أوضاع السوق يسيطر فيه بائع واحد للسلعة[٢٢] .

أما فيما يخص النقود فهي بالنسبة لأرسطو وسيط في المبادلة[٢٣] يوفر علينا مضايقات المقايضة ، أي المبادلة العينية . ولكن لكي تقوم بوظيفتها كوسيط في المبادلة يتعين أن يكون للنقود خصيصة السلعة ، أي أن تكون ذاتيا لها قيمة استعمال وقيمة مستقلة عن وظيفته النقدية ويمكن مقارنتها بغيرها من القيم (فالفضة مثلا قبل أن تكون نقودا هي سلعة لها قيمة استعمال ، اذ يمكن استعمالها في صناعة الأواني والمجوهرات والأسنان الصناعية ، ولها قيمة تستقل عن وظيفتها النقدية) . ويضيف أرسطو باختصار أن بعض السلع ، كالمعادن ، أكثر صلاحية من غيرها للقيام بدور الوسيط في المبادلة . بالاضافة الى هذه الوظيفة يعترف أرسطو للنقود بوظيفتين أخريين[٢٤] . وظيفتها كمقياس للقيم[٢٥] ، اذ يعبر عن قيمة مبادلة كل سلعة بعدد من وحدات النقود ، وعليه يمكن للنقود التعبير عن ثمن أية سلعة ، ووظيفتها

---

(١٩) نفس المرجع ، ص ١٣٣ . أنظر كذلك H. Denis ، تاريخ الفكر ، ص ٥٣ .

(٢٠) اذا كان أرسطو قد اكتشف في قيمة المبادلة (وهي شكل القيمة) علاقة تساوي وما يكتشف حقيقة هذه العلاقة فان ذلك يعني أنه لم يستطع التوصل الى أن شكل قيم السلع (أي قيمة المبادلة) انما يعبر عن كل أنواع العمل كمكافئ للعمل الانساني ، وبالتالي كأنواع في العمل لها نفس الاستحقاق . يفسر ذلك بأن المجتمع الأغريقي ، الذي عاش فيه أرسطو ، كان مجتمعا عبوديا يرتكز على عدم المساواة بين الرجال وبين قوة عملهم . واذا تمثل سر التعبير عن القيمة في أن كل أنواع العمل متساوية ومتساوية لأنها ترد في النهاية الى العمل الانساني بصفة عامة ، فان هذا السر لا يمكن اكتشافه قبل أن تسيطر فكرة المساواة بين أفراد المجتمع على عقول الناس . الأمر الذي لا يتحقق الا في مجتمع يتطور فيه الجزء الأغلب من ناتج العمل في شكل سلع (أي منتجات معدة للسوق) وتصبح به بالتالي العلاقة بين الأفراد ومالكي السلع هي العلاقة الاجتماعية السائدة . وهذا لا يتحقق تاريخيا الا في المجتمع الرأسمالي .

(٢١) وان شئنا أن نكون أكثر دقة قلنا أن الثمن هو (الشكل المتحول للقيمة ، أي قيمة المبادلة) حيث تظهر قيمة مبادلة السلع في عملية التداول .

(٢٢) أرسطو ، السياسة ، ص ٧٠ .

(٢٣) means of exchange: intérmediaire d'échange

(٢٤) أرسطو . السياسة ، ص ٥ . والأخلاق ، ص ١٣٦ . ١٣٦ .

(٢٥) measure of value: mesure de la valeur

كمخزن للقيم[٢٦]

أخيرا يتعرض أرسطو لمشكلة الفائدة[٢٧] (وهو ما يحصل عليه مقرض النقود زيادة على المبلغ الذي يقرضه ، م.د.) . وهو يقبلها كواقع عملي . ولكنه يدين كل قرض بفائدة ويعتبره من قبيل الربا ، وذلك لأن « النقود لا تلد »[٢٨] . غير أن أرسطو لا يطرح على نفسه السؤال الآتي : لماذا رغم ذلك تدفع الفائدة في واقع الحياة الاجتماعية ؟ عدم طرحه لهذا السؤال ومن ثم عدم الاجابة عليه يدفعنا الى القول بأنه لا يوجد نظرية في الفائدة في فكر أرسطو[٢٩] . ونلاحظ كذلك على هذا الفكر أنه يخلو من نظرية في التوزيع[٣٠] . أي نظرية تشرح الكيفية التي يتم بها توزيع الناتج الاجتماعي (أي مجموع ما ينتجه المجتمع في فترة انتاجية معينة) بين مختلف أفراد (أو طبقات) المجتمع . أو إن شئت نظرة تشرح الكيفية التي يتحدد بها نصيب كل طبقة اجتماعية في نتيجة عملية الانتاج .

---

(١٦) stock of value: stock de valeur يعين على كل مجتمع أن يحتفظ بكمية من النقود أو الاحتياطي لتستخدم في اشباع الحاجات في حالة ما اذا تعرض لصدمة كارثة تمنعه من الانتاج أو تقضي على ما أنتجه كارثة طبيعية كفيضان أو عدم نزول الأمطار ، أو كارثة اجتماعية كحرب أو حرب أهلية . كي تعصمه كمية من هذه النقود أو هذا حاجة المجتمع الى زيادة انتاجه في المستقبل . ولذلك عن طريق استخدامها في بناء طاقة انتاجية جديدة (بناء جسر لتعبر مياه الري ، أو وصف طريق أو بناء مصنع الى غير ذلك) . تكوين هذا الاحتياطي يمثل الوظيفة الأساسية لفائض الانتاج الاجتماعي . في المجتمعات التي تنتج أساسا قيم استعمال (أي حيث يسود الانتاج الطبيعي) يتكون هذا الاحتياطي من منتجات يقوم المجتمع بتخزينها . أما في المجتمعات التي تقوم بانتاج المبادلة ـ والمبادلة النقدية ـ على نطاق واسع . تأخذ القيم المخزونة شكلا نقديا . وتخول كمية معينة من النقود لمن يحوزها أن يحصل على مقابل لها من السلع العينية . أي من القيم المخزونة .

هذا وتبقى للنقود وظيفة رابعة (لم يتكلم عنها أرسطو) ، منشقة في الواقع من وظيفتها كوسيط في التبادل . وهي وظيفتها كوسيلة الدفع العام . كوسيلة تستخدم في تسوية المدفوعات . الديون . أثمان السلع والخدمات . كلها تسوى عن طريق النقود .

وسنرى فيما بعد أن النقود تزود راس المال بشكل من الأشكال التي يأخذها في عملية التداول (وخاصة في الاقتصاد الرأسمالي) .

(٢٧) interest: intérêt

(٢٨) « أشد ما يكره بحق هو ما يجري في العمل من أقراض بفائدة . وذلك لأن الكسب المتحقق منه انما يأتي من النقود نفسها ، وهو ما لم يعد يتفق مع الغرض الذي خلقت من أجله . فالنقود قد خلقت لتستخدم في المبادلة . بينما تؤدي الفائدة الى تكاثر في كمية النقود نفسها .. فالفائدة هي نقود ولدتها النقود . وعليه تعتبر هذه الطريقة الأخيرة في اكتساب النقود أكثر ما تكون مخالفة للطبيعة » . أرسطو ، السياسة ، ص ٦٥ ـ ٦٦ .

(٢٩) لكي يمكن الكلام عن نظرية في الفائدة يتعين علينا :

أولا : أن نطرح سؤالين عن « لماذا » و « كيف » : لماذا تدفع الفائدة ؟ وكيف تتحدد وتصيرها غير الزمن ؟

ثانيا : أن نعطي اجابة (يمكن التحقق من صحتها) لكل من هذين السؤالين .

(٣٠) theory of income distribution; théorie de la répartition des revenus

٢ - العصور الوسطى الأوروبية :

في القرون من التاسع حتى الخامس عشر الميلادية ساد في أوروبا التكوين الاجتماعي الاقطاعي[٣١] . يسمى هكذا كل تكوين اجتماعي يرتكز على طريقة للانتاج يكون فيها من يزرع الأرض ، وقد كف عن أن يكون عبدا ، خاضعا لكل أنواع القيود غير الاقتصادية التي تحد من حريته وملكيته الشخصية على نحو لا يكون معه لا انتاج عمله ولا قدرته على العمل محلا للمبادلة الحرة ، أي سلعة .

تتميز طريقة الانتاج هذه ، التي بدأت في فرنسا ثم انتشرت في انجلترا وباقي مجتمعات أوروبا :

- بأن العلاقات الاجتماعية للانتاج تدور أساسا حول الأرض التي تصبح البلورة المادية للملكية العقارية ، اذ هي ترتكز على اقتصاد يغلب عليه الطابع الزراعي .

- بأن لم يقوموا بالعمل في الانتاج الزراعي حق استعمال الأرض وشغلها . أما حق ملكيته فهو على درجات لهم من السادة حيث يوجد بعضهم فوق بعض ، دون أن يكون لأي منهم حقا مطلقا على الأرض ، وانما ليكون لكل منهم حقا على ناتج الأرض وعلى ما يورث من هم دونه في هذا السلم الهرمي ، وهو حق تحدده التقاليد والعادات .

- كما تتميز ثالثا بأن هذا الأساس الاقتصادي يقابله شبكة من الروابط الشخصية : جزء من العاملين (أغلبيتهم ، في الفترات التي سادت فيها هذه الطريقة في الانتاج) لا يتمتع بكامل حريته الشخصية ، فهم ليسوا من العبيد (اذ أشخاصهم لا تملك) ولكنهم أقنان[٣٢] . مرتبطون بسيدهم في مرحلة أولى وبالأرض التي يستغلونها في مرحلة ثانية . حتى بين السادة يرتبط نظام الملكية بنظام من الواجبات (وعلى الأخص الواجبات الحربية) يتحمل بها كل منهم في مواجهة من هو أعلى منه .

(٣١) استعنا في تقديم هذه الصورة لواقع المجتمع الاقطاعي في أوروبا في هذه الأونة بالمراجع الآتية :

E. Perroy (et autres). Histoire Générale des civilisations. Tome III. Le Moryen Age. P.U.F., 1961, p. 237 - 290 — E. Lipson. The Economic History of England, Vol. I. The Middle Ages. Adam & Charles Black. London, 1945 — H. Heaton. Histoire économique de l'Europe, Des origines à 1750. A. Colin. Paris, 1936. P. 50 et sqq — G.W. Southgate. England Economic History. J. Dent & Sons. London, 1950. Ch. I - IV — C.J. Bayes & F.F. Clark. Medieval and Early Modern Times. Macmillan. New York, 1966. p. 89 & sqq — E.J. Hobsbawm (ed.). Marx Precapitalist Economic Formations. Lawrence & Wishart, London, 1964 — Ch. Parain et P. Vilar, «Féodalité française et modèle de production féodal» in Sur le féodalisme, Editions Sociales. Paris, 1971. p. 13 to

الرق قد بدأ الاقطاع ، أو نشأ في كل بلدان أوروبا في نفس الوقت . كما أن كل نظام قياسه أو انهياره لم تحدث في مختلف بلدان هذه القارة في نفس الوقت ولا بنفس الشكل .

(٣٢) Serfs ويطلق على النظام نفسه the serfdom; le servage

وكذلك يتميز التنظيم السياسي لهذا المجتمع . فالدولة موجودة ومتحركة غير متحركة يقوم على ما يتمتع به ملاك الأرض من ذاتية كبيرة في ممارسة السلطة . فهناك تمارس من شخص في مواجهة الآخر . و « العدالة » يحكم بها السيد الأكبر على تابعيه من السادة . ويحكم بها الشريف على فلاحيه . ومن ثم يرتبط الحصول على الاستقطاعات الاقتصادية بالجهاز القضائي ـ السياسي أوثق ارتباط .

ونجد طريقة الانتاج هذه جذورها في المجتمع القديم حين بدأ كبار ملاك الأراضي (أفراد الطبقة الأرستقراطية) يقاومون سلطة روما عن طريق الاقامة في ملكياتهم العقارية Villas[٣٣] وتوسيع هذه الملكيات بالسيطرة على الملكيات الأصغر والمزارع المهجورة . أما من يملكون الوحدات الصغيرة فكانوا أفقر من أن يقاوموا تحصيل الضريبة الرومانية أو حمايتهم للغير أو الغزاة المخربين . ومن ثم بحثوا عن الحماية ضد مالك كبير يتخلون له عن أرضهم وعن جزء من حريتهم فتنتقل الملكية اليه وتبقى الأرض هم يستغلونها هم وأبناؤهم في مقابل التخلي عن جزء من الناتج طالما ظلوا مخلصين للسيد المالك .[٣٤] ثم بدأ كبار ملاك الأراضي يدركون أن هذا النوع من الاستغلال أكثر ارباحية لهم ، فزاد انتاج هؤلاء على انتاج العبيد (لأن الأخير لا يوجد لديهم أي دافع للانتاج) كما أنهم يكونون اعالة أنفسهم . في هذا النظام نجد جذور نظام الاقنان . غير أن هذا لا يعني أن الفن وجد كنتيجة للتحور الخارجي للعبد وانما يعني أن فلاحي أوروبا الأحرار (الذين كانوا يقومون بالانتاج استقلالا على ملكياتهم الصغيرة) باخضاعهم أصبح لهم هذا المركز (colonat) الذي وجد في المجتمع العبودي القديم . وهم لم يوجدوا فيه عن طريق الغزو الفاجيء وحده . كما أنه لم يأتيهم عن طريق تطور من جانب واحد ابتداء من مركز تبعية قديم (العبودية أو الـ colonat في العصور القديمة) . وانما نتج عن تفاعل عفوي (تحقق تحت الضغوط المتداخلة للوقائع وللفعل البطيء أو العنيف للطبقات المسيطرة) لاتجاهات مراكز شخصية status personnels مختلفة جدا نحو حالة واقعية (حالة القن) تتمثل في النهاية وتدريجيا في مركز قانوني موحد . فالقانون لا يسبق الواقع ، وهو يبلوره ولا يخلقه . وقد تم ذلك في اطار الحياة الجماعية لافراد القرية التي احتفظت بأرض الرعي المشتركة ، بالغابة المشتركة ، بالأرض غير المزروعة المشتركة وبمظاهر أخرى لحياتها الجماعية[٣٥] .

---

(٣٣) Ch. Parain, p. 14

(٣٤) سموا هؤلاء بالمستأجرين المقيمين Coloni

(٣٥) وعليه « يتعين الا نعتقد أن تطور مستمرا ومن جانب واحد قد تم من عبودية العصور القديمة الى نظام الاقنان . ومن هذا الأخير الى الحرية . فقد ولد نظام الاقنان (أو تحققت له السيطرة) من الاخضاع التدريجي للفلاح الحر أكثر منه من التخفيف من حالة العبودية . ويتوقف التخفيف من حدة نظام الاقنان هذا واختفاؤه على الشروط الموضوعية لكل منطقة وعلى حدة الصراع بين الطبقات وما انتهي اليه هذا الصراع . كما أن اختفاء المركز القانوني للاقنان قد يترك خلفه أعباء كثيرة وارتباطات عديدة يتحمل بها الاقنان هي في الواقع من نتاج طريقة الانتاج الاقطاعية » . Ch. Parain, p. 22

وبرغم صعود طريقة الانتاج هذه بتحول كبير (رغم بطئه) في قوي الانتاج ، وهو [illegible] أثير الهجرات التي شهدتها الفترة السابقة من الشرق (بما فيه الصين) نحو [illegible] والمناطق التي لم تنقطع مع هذا البحر الأبيض المتوسط والغزو العربي لجنوب [illegible] في اطار هذون الانتاج الزراعي تمثل هذا التحول في استخدام أحسن للقوة المحركة الحيوانية (في تشغيل طواحين القمح ومعاصر الزيتون) الأمر الذي يؤدي الى تحرير الايدي العاملة المنزلية واماكن استخدامها في أعمال أكثر انتاجية . وكذلك استخدام وسائل جديدة تمكن من استغلال أحسن لقوة الجر الحيوانية . كما شهدت أدوات العمل تحسنا تمثل في احلال أدوات حديدية محل الأدوات الخشبية (مما يزيد من انتاجية العمل الزراعي) . وكثر استخدام المحراث الثقيل ذي العجلات وذي القلاب مما يمكن من اعداد أحسن للتربة . وادخلت محصولات جديدة مثل الشوفان [illegible] الذي يستخدم في غذاء الانسان كما يستخدم في علف الواشي ، وخاصة كعلف للخيول يحسن من نوعها ويوسع من تربيتها ، الأمر الذي أدي الي بدء استخدام الخيول (في نهاية القرن الحادي عشر) محل الثيران في الجر . كما حلت الدورة الزراعية الثلاثية (سنة تزرع الارض فيها قمحا ، ثم تزرع شعيرا في السنة التالية ، ثم تترك للراحة في السنة الثالثة)[٣٧] محل الدورة الزراعية الثنائية (سنة زراعة وسنة راحة) .

كل هذا أدي الي **زيادة انتاجية العمل الزراعي** . هذه الزيادة تعني انقاص عدد ساعات العمل اللازمة لانتاج كمية معينة من الناتج . وهو ما يؤدي الي أن يقل عدد العمال الذين يحتاجهم الشريف للعمل علي أرضه كعبيد أو كعمال سخرة . الأمر الذي يخفف من عبء السخرة التي يتحمل بها الفلاحون ، كما أن زيادة انتاجية العمل الزراعي علي الأرض التي يزرعها الفلاحون لأنفسهم ونقص عدد ساعات عمل السخرة الذي يلزمون بادائه يؤديان الي تحسن ملموس في المستوي الغذائي ، وهو ما يدفع السكان نحو الزيادة . هذه العوامل يتعين استيقاؤها في الذهن لفهم التحول الذي أصاب طريقة الانتاج الاقطاعية نفسها .

هذا عن طريقة الانتاج الاقطاعية بصفة عامة ، ما هي الصورة التي كانت توجد عليها الوحدة الاقتصادية (والاجتماعية) في ظل هذا التكوين الاجتماعي ؟ اذا كان من اللازم أن نرسم الخطوط العريضة لهذه الوحدة وجب أن نحذر التعميمات البسيطة التي تدفع الي الاعتقاد بأن الوحدات الاقتصادية كانت متشابهة تماما ، اذ كانت هناك اختلافات كبيرة بين

---

(٣٦) J. Bernal, Science in History Watts, London, 1957, p. 38 & sqq.

(٣٧) التوقيع في أوربا الي ثلاثة حقول كبيرة يزرع كل منها في سنتين متتاليتين قمحا ثم شعيرا ثم يترك خاليا في السنة الثالثة . وعليه تكون أرض الوحدة الاقتصادية في سنة واحدة موزعة بالثلث بين زراعة القمح وزراعة الشعير دون زراعة . three-field system

الوحدات . ولكنها اختلافات لا تغير من الحقيقة التي مؤداها أن الطابع التنظيمي العام للوحدات الاقتصادية (الاجتماعية) كان اقطاعيا .

كانت الوحدة الاقتصادية (الاجتماعية الريفية تتمثل في « الاقطاعية » أو « الضيعة » manor, manoir . وهي وحدة اقتصادية اجتماعية تقوم علي الانتاج الطبيعي وتهدف - علي الأقل في المراحل الأولي - الي الاكتفاء الذاتي . والاقطاعية هي مزرعة محصنة تحتوي الأرض المزروعة وأرض الرعي المشتركة وأرض الغابات المشتركة . وهي مكونة في الأغلب من الأحيان من قرية ، أو أكثر في حالات قليلة . يتوسط الاقطاعية قصر الشريف الذي يتملك الأرض ملكية مقيدة بدرجته في السلم الهرمي للملكية الاقطاعية . ويقيم في أكواخ القرية الصغيرة من يقومون بالنشاط الانتاجي . وهم العبيد (وعددهم كان في النقصان مع مرور الوقت) والاقنان (ويمثلون الأغلبية) والفلاحون الأحرار (وهم أقلهم عددا كانت تملك مساحات صغيرة من الأرض) . وعادة ما كانت القرية تضم بعض الحرفيين ، كالحداد والنجار وصانع الأواني ، الي غير أن هذا لا يستبعد قيام عائلة الفلاح ببعض الانتاج الحرفي . بل عادة ما كانت الوحدة العائلية الفلاحية تقوم بالنوعين من النشاط الانتاجي : النشاط الأولي ، من زراعة ورعي وصيد وخلافه ، بصفة غالبة ، والنشاط الصناعي التحويلي لمنتجات النشاط الأولي . كطحن الحبوب وعصر الزيوت وحفظ المأكولات ونسيج الأقمشة . وكان يوجد بالاقطاعية طاحونة مائية أن وجدت بالقرب من نهر أو طاحونة هوائية إن بعدت عنه . كما كانت تحتوي علي كنيسة ومنزل للقس ان تطابقت الوحدة الاقتصادية مع وحدة التقسيم الكنسي لأرض أوروبا الاقطاعية .

وكانت أرض القرية المزروعة تقسم - في مرحلة أولي - بين أرض تزرع لحساب الشريف مباشرة demesne, domaine seigneurial وأرض يزرعها الفلاحون لحسابهم في صورة **وحدات انتاجية صغيرة** . هذا الجزء الثاني من الأرض تفلحه عائلات الفلاحين كل يزرع قطعة أرض صغيرة استقلالا ولحسابها . ولكن الأعمال الزراعية الأساسية (وقت الزرع والحصاد) عادة ما تتم جماعيا . عائلة الفلاح كوحدة انتاجية لا تملك الا البسيط المحدود من أدوات العمل . فأهم هذه الأدوات يملكها الشريف سيد الأرض (كالطاحونة ومعاصر الزيوت) . والبعض منها (كالعربات مثلا) تملكه عائلات القرية جماعيا .

في مقابل استغلال هذه القطعة الصغيرة **تلزم عائلة الفلاح** بالعمل طوال بعض أيام الأسبوع (ثلاثة في المتوسط) علي الأرض التي تزرع لحساب سيد الأرض . علي هذا النحو

يقتضي الشريف وهو الأرض التي تستغلها عائلة الفلاح في صورة عمل[٣٨] يسخر له أفراد العائلة . أي أنه يقتضيه بالاكراه المباشر . بالاضافة الي ذلك ، كان علي الفلاحين - في مواجهة الشريف - التزامات أخري : يتخلي الفلاح عن جزء من المحصول للشريف ، كما يتخلي له عن بعض من الحيوانات التي يقوم بتربيتها الأسماك التي يصيدها . وعلي الفلاح كذلك أن يطحن حبوبه في مطاحن الشريف ، ويخبزه في مخبزته ويصنع بيرته في أواني التخمير المملوكة للشريف ، وهو ، في سبيل ذلك ، يعطي الشريف جزءا من المحصول . كل هذه الالتزامات يتحمل بها الفلاح قنا كان أو حرا ، الا أنها كانت أكثر ثقلا بالنسبة للاقنان . وعليه يكون وقت عمل المنتج المباشر (عائلة الفلاح) موزعا بين عمل (زراعي في الحقل ، وصناعي في المنزل) يبذله خلال عدد من أيام الأسبوع علي الأرض التي يزرعها لحسابه بفضله يتوصل الي المنتجات اللازمة لاعاشته وتجديد قدرته علي العمل ، وعمل بلا مقابل يبذله في مكان آخر ، علي الأرض التي تزرع لحساب الشريف ، وخلال زمن آخر ، عدد من أيام الأسبوع ، يتبلور في كمية من الناتج يحصل عليها الشريف .

من هذا يتضح أنه وان كانت الاقطاعية - وهي ملكية كبيرة - تمثل الوحدة الاقتصادية (والاجتماعية) الا أن الانتاج يقوم علي الوحدة الانتاجية الصغيرة (عائلة الفلاح) ، وهي وحدة تختلف عن الوحدة الزراعية الصغيرة التي عاصرت تحلل المجتمع البدائي في مرحلة الانتقال الي المجتمع العبودي (حيث سادت في هذا الأخير وحدة الاستغلال الزراعي الكبير القائمة علي عمل العبيد) . اذا تتميز الوحدة الصغيرة في ظل الاقطاع بارتفاع نسبي (وهمدود) في مستوي فنون الانتاج . في هذه الوحدة تكاثفت أدوات الانتاج التي ظهرت في نظام وحدات الاستغلال الزراعي الكبير في العصور القديمة (كالطاحونة المائية ، المعصرة وغيرها) مع مزايا وحدات الاستغلال الصغيرة حيث يوجد لدي المنتج المباشر (علي عكس العبد) الدافع للانتاج والقدرة علي اتخاذ المبادرة ، نقول تكاثفت أدوات الانتاج تلك مع هذه المزايا لزيادة انتاجية العمل الزراعي . وبما أن أدوات الانتاج هذه (بالاضافة الي ما استحدث من أدوات تحت تأثير الهجرة من الشرق والغزو العربي لجنوب غرب أوروبا) تتعدي امكانيات القائمين باستغلال الوحدات الصغيرة فاننا نجدها مجمعة في يد الشريف سيد الأرض علي نحو يجعل منه نوعا من المنظم والسيد للعملية الانتاجية ولكل الحياة الاجتماعية . وهو ما يصدق علي المرحلة الأولي في سيادة طريقة الانتاج الاقطاعية .

في مرحلة ثانية تؤدي زيادة انتاجية العمل الزراعي[٣٩] الي انقاص عدد ساعات عمل

---

(٣٨) Labour-rend rente en travail

(٣٩) أنظر ص ٧٢ فما بعد .

السخرة اللازمة لفلاحة الأرض التي تزرع لحساب الشريف ، كما تؤدي الي زيادة الانتاج علي الأرض التي يزرعها الفلاحون لحسابهم . وكذلك ، من خلال زيادة المواد الغذائية ، الي زيادة الانتاج الصناعي المنزلي الذين يقومون به في اطار العائلة . امكانية زراعة الأرض التي تزرع لحساب الشريف بوقت عمل أقل (لو وجد الدافع لذلك من قبل من يبذل الجهد) وزيادة انتاجية العمل الزراعي علي الأرض التي تزرع لحساب الفلاحين يجعلان من الأفضل للشريف أن يتخلي عن كل الأرض المتزرعة لتزرعها عائلات الفلاحين لحسابهم علي أن يحصل هو علي جزء من المحصول (يفوق ما يحصل عليه من سبيل زراعة مساحة من الأرض لحسابه عن طريق تسخير الفلاحين لذلك بعض الوقت) ، أي أنه يحصل علي **ريع الأرض في شكل عيني**[٤٠] . من هنا يظهر الي جانب الريع في شكل عمل الريع العيني الذي ما يلبث أن يصبح الشكل الغالب للريع .

في هذه المرحلة نجد المنتج المباشر (عائلة الفلاح) وفي حيازته كل شروط العمل ، ما عدا الأرض التي تمثل في هذا المجتمع وعاء عملية العمل (وهي بصفتها هذه الشرط الوحيد الذي يواجه المنتج **كملكية منفصلة عنه ، ومستقلة عنه ، ومشخصة في الشريف**) . وهو يقوم بالعمل ، كل العمل ، علي الأرض التي يستغلها . ولم يعد يقم بعمل علي أرض الشريف (اد يقوم الفلاحون بزراعة كل أرض الاقطاعية المزروعة لحسابهم) . هنا يتصرف المنتج في كل وقت عمله ، رغم أن جزءا من وقت العمل هذا يذهب الي الشريف . كل ما في الأمر أنه لم يعد يذهب مباشرة (في صورة عمل سخرة علي الأرض التي كانت مزروعة لحساب الشريف) وانما في صورة غير مباشرة (في صورة جزء من المحصول ، من الناتج العيني ، من ناتج عمل الفلاح علي الأرض التي يزرعها) . هنا كف عمل المنتج لنفسه وعمله للشريف عن أن يكونا منفصلين في الزمان (أربعة أيام من الأسبوع له وثلاثة أيام للشريف) . والمكان (الأرض المزروعة لحسابه ، وعلي أرض الشريف) . ولم يعد المنتج بحاجة الي أن يمارس الجزء من العمل الذي يذهب ناتجه للشريف تحت الاشراف والاكراه المباشرين للشريف أو من يمثله . **فالمنتج تسوقه قوة الظروف الاجتماعية بدلا من قوة الاكراه المباشر ، يسوقه الالزام القانوني بدلا من السياط ، يسوقه لتحمل مسئوليته . ويكف الشريف بالتالي عن أن يلعب دورا في عملية الانتاج ، تنظيما أو غير تنظيمي ، ويصبح من الطفيليات الاجتماعية .**

هذا الريع العيني يفترض دوام الاقتصاد الطبيعي (رغم أن مستوي قوي الانتاج يكون قد ارتفع) حيث تتحقق شروط الانتاج وتجدد الانتاج كلية أو في الأغلب منها داخل

---

(٤٠) rent-in-kind; rente en nature

الوحدة الاقتصادية ، الاقطاعية (دون اعتماد على غيرها من الوحدات ، أي دون حاجة الى تبادل مع غيرها من الوحدات ، الى السوق) . وحيث يمتزج النشاط الزراعي بالنشاط الصناعي المنزلي للوحدات الانتاجية (عائلات الفلاحين) في داخل هذه الوحدة الاقتصادية . ويكون الناتج الفائض ، الريع العيني ، في الواقع نتاج هذا المزيج من العمل الزراعي والعمل الصناعي لعائلة الفلاح ، بصرف النظر عما اذا كان الشريف يحصل على جزء من الريع في صورة منتجات صناعية أو يحصل عليه كلية في صورة منتجات زراعية .

في هذه المرحلة يكون وقت عمل المنتج (عائلة الفلاح) موزعا اذن بين عمل يتوصل به الى انتاج المنتجات اللازمة لاعاشته وتجديد قدرته على العمل . وعمل فائض يتبلور في كمية من الناتج (الناتج الفائض) يعيش عليها الشريف وغيره ممن لهم في حق ملكية الأرض أو ممن يعيشون بفضل هذا التنظيم الاجتماعي للانتاج دون أن يسهموا في عملية الانتاج (كرجال الدين) ، اي يتبلور في الريع العيني . الا أنه ليس من الضروري أن يستنفد الريع كل فائض عمل عائلة الفلاح) ، اي العمل الذي يزيد على العمل اللازم لانتاج ما هو ضروري لمعيشة العائلة . اذ بالمقارنة بالحالة التي كان يتحلى فيها المنتج عن الريع في صورة عمل (يقوم به على الأرض المزروعة لحساب الشريف) نجد لديه الآن امكانية أكبر في كسب جزء من الوقت يستطيع أن ينتج فيه فائضا يعود اليه هو بالاضافة الى الناتج اللازم لمعيشته . **كما أن هذا الشكل للريع (العيني) يتيح الفرصة لظهور فروق في الوضع الاقتصادي للمنتجين الأفراد أو على الأقل لظهور امكانية هذا التباين (وكذلك امكانية أن يكتسب المنتج وسائل استغلال عمال آخرين بطريقة مباشرة [٤١] . الأمر الذي يعني ظهور التميز الاجتماعي بين الفلاحين .**

في مرحلة ثالثة ، مرتبطة بنمو التجارة والمدن وزيادة استخدام سادة الاقطاع للسلع الصناعية ، يظهر الى جانب الريع العيني شكل آخر للريع ، يظهر أولا بطريقة متناثرة ثم ما يلبث أن يصبح الشكل الغالب للريع ، ذلك هو **الريع النقدي** [٤٢] . الريع العيني يتحول الى ريع في شكل النقود . هنا يتخلى المنتج للشريف ، ليس عن جزء من الناتج ، وانما عن ثمن هذا الجزء . ولكي يقدم ذلك للشريف يتعين عليه ، مع بقائه منتجا للجزء الأكبر من المنتجات اللازمة لاعاشته هو وعائلته . أن ينتج جزءا من منتجاته في صورة سلع ، أي منتجات معدة للبيع ، للسوق . الأمر الذي يعني أن طبيعة طريقة الانتاج في مجموعها تبدأ في التحول ، وتبدأ الوحدة الاقتصادية (الاقطاعية) بالتالي في ان تفقد استقلالها عن الوحدة الاقتصادية الأخرى . وذلك رغم استمرار هذا النوع من الريع في الارتكاز على

(٤١) خاصة وأن ميسوري الحال من الاقنان كان يتبعهم اقنان يعملون لحسابهم .

(٤٢) Money rent: rente monetaire

نفس الأساس الذي كان يرتكز عليه الريع العيني . اذ لا يزال المنتج المباشر غير مالك للأرض ، وعليه أن يتخلى لسيد الأرض عن بعض وقت عمله يخصص لانتاج فائض يذهب للشريف بعد أن يكون قد تحول في السوق الي نقود . أما ملكية وسائل الانتاج الأخري (غير الأرض) والمواشي فقد تحولت الي المنتج المباشر أولا في واقع الأمر ثم قانونا في مرحلة تالية . هذه الملكية تصبح اذن شرطا سابقا علي وجود الشكل النقدي للريع .

ويرتبط تحول الريع العيني الي الريع النقدي بتطور التجارة تطورا معتبرا وكذلك الصناعة الحضرية (أي الصناعة التي تتم في المدن) وانتاج المبادلة بصفة عامة . ومن ثم تداول النقود . كما أنه يفترض أن يكون للسلع اثمان في السوق وأن تقترب هذه الأثمان من قيمها علي نحو تقريبي (وهو ما لم يكن لازما في ظل الأشكال السابقة للريع . اذ منذ أن يصبح لانتاج المبادلة دور حاسم يتعين أن يحصل كل منتج في المبادلة علي ما يساوي ما يتخلي عنه[٤٣])[٤٤] . ولكننا ما نزال في اطار انتاج المبادلة البسيط .

واضح أن التحول يتم في داخل طريقة الانتاج الاقطاعية نفسها وان كانت تتفاعل معه عوامل أخري كنمو المدن والتجارة . فالتحول يتم من خلال التناقض بين الفلاحين وسادة الأرض . تناقضا ينعكس في صراع بينهم حول الناتج الفائض . اذ مع ظهور الريع العيني أصبح أمام المنتج المباشر ، كما رأينا ، امكانية الحصول علي جزء من الناتج الفائض لنفسه ، ومن ثم امكانية استخدامه لزيادة الانتاج (في التركيم) . لزيادة هذا الجزء من الفائض بدأ الفلاحون (وخاصة الفئة المتميزة منهم التي أصبحت ترتبط بالسوق علي نحو مباشر) في ممارسة الضغط علي سادة الاقطاع في سبيل تحويل الريع العيني الي ريع نقدي . هذه الضغوط كانت تتبلور في ثورات من الفلاحين في انجلترا يقومون بها بقيادة الأغنياء منهم (مثال ذلك ثورة الفلاحين في انجلترا في ١٥٣١ وحربهم في ألمانيا من ١٥١٤ - ١٥٢٥) . يترتب علي ذلك زيادة الجزء من الناتج الفائض الذي يحتفظ به المنتج المباشر (وخاصة كبار

(٤٣) من الوقت الذي يشمل فيه انتاج المبادلة مكانا هاما في حياة المجتمع يصبح من اللازم ان يتحقق التكافؤ في المبادلة . اذا يؤدي الي اختلال التنظيم الاجتماعي للعمل وتعطل المجتمع (الذي يتكون من عدد كبير من الوحدات المنتجة للسلع) . وذلك لأن من يحصل في النهاية علي مقابل لما أنتجه يقل عما أنتجه هو بعد نفسه مدفوعا في النهاية الي ترك المجال الذي يتتج فيه مجال آخر . مهما كانت أهمية المجال الأول لحياة المجتمع . الأمر الذي يؤدي الي اختلال النشاط الانتاجي للمجتمع .

(٤٤) في التطور التالي يؤدي الريع النقدي الي الريع الذي يدفعه المزارع المستأجر للأرض لمالك الأرض . اذ مع سيادة الريع النقدي تتحول العلاقة القانونية (التي تحكمها العادات والتقاليد) بين السيد واتباعه الحائزين علي الأرض لزراعتها الي علاقة تعاقدية بحتة يحددها التعاقد الذي يتم وفقا لقواعد القانون الوضعي . وعليه يصبح الحائز القائم بالزراعة مجرد مستأجر للأرض . هذا التحول ، الذي هو رهين بما يتم في خارج النشاط الزراعي ، يؤدي ، من ناحية أولي ، الي تمكين الحائز السابق للأرض من أن يدفع لسيد الأرض مقابل تخلله من التزامه بدفع الريع ، ومن ثم يتحول الي فلاح مستقل يملك الأرض التي يزرعها ملكية تامة . كما أنه يؤدي ، من ناحية ثانية ، الي احلال المزارعين الذين يقومون باستغلال الأرض بقصد بيع حاصلاتها في السوق محل الفلاحين القدامي الحائزين للأرض (بشرط أن نسمح بذلك العلاقات العامة الأخري للانتاج) . ونكون بذلك قد دخلنا في التحول نحو الزراعة الرأسمالية .

الفلاحين) . مع هذه الزيادة واتساع امكانية أن يزيد بعض الفلاحين من الأرض المستأجرة تتسع فرص التركيم أمام أغنياء الفلاحين . وعليه تستمر عملية التميز الاجتماعي في داخل الفلاحين : أغنياء الفلاحين الذين يرتبطون مباشرة بالسوق ويقومون بتركيم رأس المال في الزراعة ، وصغار الفلاحين ، أو أفقرهم ، الذين يجدون أنفسهم في موقف تبعية بالنسبة لأغنيائهم الذين يقومون باستخدامهم في مقابل أجر .

مع هذا الأساس الاقتصادي يتشابك **التركيب العلوي للهرم الاجتماعي في الريف الاقطاعي** . هذا التركيب العلوي يدور حول نوع ملكية الأرض السائدة . فملكية الأرض علي درجات يستتبعها هرم من علاقات التبعية والولاء في قاعدته توجد ، كما رأينا ، علاقة التبعية بين الفلاحين والشريف . ثم توجد ، في بقية الهرم صعودا نحوالقمة ، العلاقات بين أفراد الطبقة التي لا تسهم في عملية الانتاج ، طبقة النبلاء . فالشريف بدوره ، لكي يحمي أتباعه ويزيد منهم يجعل من نفسه تابعا لشريف أكثر قوة ونفوذا يتمتع بحمايته (يتحدد هذا النفوذ وتلك القوة بمساحة الأرض التي يسيطر عليها سيطرة مباشرة وعدد الأشراف الذين يحميهم) في مقابل التزامات[٤٥] يتحمل بها الشريف التابع تجاه متبوعه . التزامات تتبلور في النهاية في تخلي الأول للثاني عن جزء من ريع الأرض الآتي من الفلاحين . وهكذا تتابع علاقات التبعية والولاء حتي تصل الي الملك أو الامبراطور ، قمة الهرم الاجتماعي ، والمتمتع بسلطة اسمية . وهي علاقات تجعل السلطة موزعة بين أفراد طبقة النبلاء . الامر الذي يجعل من النظام الاقطاعي نظاما بلا « دولة » ممركزة ، ولد من حالة الفوضي التي خلفها انهيار الامبراطورية الرومانية والغزو الجرماني ، ولكنه يحد من هذه الفوضي وينظمها بما يستلزمه من صور التضامن الاجتماعي والالتزامات والمعتقدات . فالتضامن العائلي يزداد توثقا ، والتضامن الطبقي بين أفراد طبقة النبلاء يقوي بالعادات والمراسيم والجهاز المادي والمعنوي « للفروسية » . ثم يأتي في النهاية الجزاء الديني . فالكنيسة ، التي تقوم هي الاخري علي تنظيم هرمي في قمته البابا (بسلطته الاسمية) ويمتد اطاراته العليا من النبلاء (أخوة أمراء الاقطاع وأبنائهم الصغار) واطاراته الدنيا من الاحرار من الفلاحين ، هذه الكنيسة تمثل جزءا لا يتجزأ من النظام الاقطاعي . اذ كانت تمتلك اقطاعيات كبيرة[٤٦] ، وتعمل علي اسقاط من

---

(٤٥) تتمثل هذه الالتزامات في ريع الأرض لمدة سنة عندما يتطوع الشريف التبوع اباها ، كما أنه يعلن ولاءه للسيد المتبوع ويخدم في جيشه أربعين يوما سنويا علي الأقل (أو يدفع ضريبة درع بدلا عن ذلك) ويقضي بعض الوقت سنويا في بلاط السيد ليسهم في حراسته وفي أبهاء المشورة . كما أنه يسهم في فدية السيد عندما يأسر وفي تجهيز كبري بناته عند زواجهن وفي نفقات الاحتفال الذي يقام عندما يصبح أكبر أبنائه فارسا . كما يلتزم كذلك باستضافة السيد المتبوع عندما يمر باقطاعية التابع ليمضي عليها فترة من الوقت ، وهي استضافة تمثل جزءا لا يتجزأ من دخل السيد المتبوع . ولهذا الأخير أن يطلب من تابعه أن يقدم له هدايا خاصة عند بنائه لقلعة جديدة أو قيامه بحرب ، وخاصة في الحروب الصليبية .

(٤٦) « وفي المراحل الأولي كان الرهبان من طائفة البندكتين les bénédictins يغلبون الأرض بأنفسهم ، ولكنهم سرعان ما حل بهم التعب وأصبحوا أغنى من أن يعملوا بأيديهم واستمرأوا التعود بالعادات الاقطاعية في وقت كانت

العنف الذي يثور بين النبلاء بعضهم البعض (الأمر الذي يضعف من تضامنهم الطبقي) ، كما تعمل علي الأخص علي الحد من العنف من جانب الفلاحين وتضمن خضوعهم المعنوي كأفراد للطبقة التي تنتج للمجموع : تنتج لاعاشة نفسها واعاشة النبلاء بفرسانهم الذين يدافعون عن « المجموع » واعاشة رجال الدين الذين يصلون « للمجموع »[٤٧] .

يتضح من كل هذا أن من طبيعة طريقة الانتاج الاقطاعية أن يتجزأ المجتمع . يتجزأ أفقيا بين اقطاعيات تمثل وحدات اقتصادية شبه مستقلة . بل وتتجزأ الوحدة الاقتصادية الواحدة (الاقطاعية) بين وحدات انتاجية صغيرة (عائلات الفلاحين) . ويتجزأ المجتمع رأسيا في شكل سلسلة من علاقات التبعية تجعل من المتعذر - ان لم يكن من المستحيل - أن يكون للمجتمع مركز .

تقدم لهم قوتي بأكملها كهدايا . كما أن الحروب الأهلية والغزوات كانت تدفع الفلاحين والحرفيين في التجمع حول اقطاعيات الكنيسة أو في داخلها . وهكذا تمكن الرهبان من العيش علي عمل الآخرين . كذلك الحال بالنسبة لطائفة أخري من الرهبان les cisterciens . فقد أوصي نظامهم الذي أسس في ١٠٩٢ بحماس كبير بضرورة القيام بالعمل اليدوي . كما حرمت قواعد هذا النظام علي الرهبان قبول الهدايا في شكل قري أو اقنان او طواحين خشية أن يعوقهم ذلك بالعيش علي عمل الآخرين . وعليه كان من المتعين علي أعضاء هذه الطائفة أن يقوموا بكل أعمال الزراعة وما يتبعها من نشاط حرفي بأنفسهم . ولكن شيئا فشيئا أصبحت هذه الأعمال تترك لتكون من نصيب فئة من الرهبان (توجد في أدني السلم التنظيمي - م.د.) تقوم بأعمال الخدمة وتشرف علي العمال المستأجرين كما تقوم بالاشراف علي الاقنان والمال الأحرار الذين يفلحون أرض الكنيسة » .

H. Heaton . المرجع السابق الاشارة اليه ص ٨٤ - ٨٥ .

(٤٧) في اطار هذا التكوين الاجتماعي يمكن ، ابتداء من مكنه الأرض ، تمييز ثلاث حالات اجتماعية سادت الريف الاقطاعي ، يحتوي كل منها تنظيما وظيفيا . فهناك أولا رجال الدين the clergy; le clegre Etat Social, Social Estate بما لهم من تنظيم هرمي يفوق تنظيم النبلاء احكاما ويسهل لهم اكتساب الأرض (وقد كان ما تملكه الكنيسة من الأرض يزيد علي ذلك التي يملكها النبلاء) والسلطة والهيبة الاجتماعية . كما كانوا أصحاب المعرفة (وهو ما يعطيهم سطوة اضافية) . بل أنه مكن الكنيسة من أن تكون سلطة دولية تفوق سلطة الملوك المطلقين (في أزهي فترتها أي تلك التي غطت القرون من التاسع الي الحادي عشر) الا أن قوة رجال الدين كانت تعاني من أن تنظيمهم لم يكن بنفس اعادة انتاج نفسه ، اذ كانت الكنيسة تلجأ الي الفئات الاجتماعية الأخري لتجنيد أفرادها ، الأمر الذي يحد من التماسك بينهم . وهناك ثانيا النبلاء the nobility; la noblesse ويمثلون الطبقة الحاكمة بما تحتويه من رجال الحرب ، الفرسان . كانوا يعتبرون أنفسهم طبقة لا يحق للآخرين ، وخاصة العامة ، أن يقتربوا منهم . فبالاضافة الي مركزهم القانوني المتميز كان لهم نمط حياة مختلف عن نمط حياة الآخرين (بالنسبة لمستوي المعيشة ، العادات والقواعد الأخلاقية ، التعليم ، الذوق في الفن والأدب ، طريقة اللبس ، حتي اللغة التي يتكلمونها في حياتهم اليومية) الا أن العلاقة بين النبلاء كان يغلب عليها طابع التنافس في ظل روابط التبعية التي تربطهم . (وذلك لأنهم كانوا يتنافسون في الواقع فائض الانتاج الذي يحصلون عليه من الفلاحين) . وهناك ثالثا عامة الناس the common people الذين يتمثلون ، قبل قيام المدن ونموها ، في الفلاحين الذين يعيشون في الاقطاعيات وينظم الكثير من حياتهم وفقا لرغبات سيد الأرض الذي يستطيع أن يلحق بهم ويعيدهم الي الأرض أن غادروها . كما أن للسيد حقوق حتي علي أشخاصهم (كحق قضاء الليلة الأولي مع بنات الفلاحين عند زواجهن) وكانوا أقل الفئات تنظيما وأن كان ذلك لم يمنعهم من الثورة ضد الأسياد (في فرنسا وانجلترا وألمانيا وأسبانيا خاصة طوال القرن الرابع عشر) . انظر في ذلك :

O.C. Cox, Caste, Class & Race, A Study in Social Dynamics. Monthly Review Press, New York, 1959. p. 121 - 132.

A. Soboul, Précis d'histoire de la révolution française, Editions Sociales, Paris, 1962.

وذلك بالنسبة للمجتمع الفرنسي)

هذا التجزأ وانعدام المركزية كانا من الدرجة بحيث يستحيل معها علي طريقة الانتاج هذه أن تتقدم بسرعة وبفضل قواها الذاتية . ومن ثم مثل التوسع الأفقي ، أي انسحاب طريقة الانتاج هذه لتغطي مساحات جديدة من الأرض لم تكن مزروعة من قبل ، السبيل الوحيد لتوسعها توسعا لا يفقدها خصائصها . وهو توسع استمر ، بدافع من الملاك ورجال والدين في حرصهم علي توسيع ملكياتهم وبدافع من الاقنان في سعيهم الي المساومة في سبيل شروط أفضل علي الأرض الجديدة ، حتي القرن الثالث عشر ، حين انتهي بطريقة الانتاج هذه الي حدودها . أي الي أقصي ما يمكن أن تعطيه . فروابط الانتاج السائدة لا تسمح باستغلال هذه الملكيات الكبيرة (الاقطاعيات) كوحدات انتاجية كبيرة تزداد عليها انتاجية العمل علي نحو يمكن من اشباع الحاجات المتزايدة خاصة للطبقة المالكة . **وصول طريقة الانتاج هذه الي حدودها في القرن الثالث عشر كان اعلانا لأزمة الاقطاع التي لم يفق منها والتي امتدت حتي القرن الخامس عشر لتصبح أزمة تفككه مع تطور طريقة الانتاج في داخل الزراعة نفسها** ، كما رأينا من قبل ، **وتطور طريقة أخري للانتاج لا ترتكز مباشرة علي الأرض وانما علي الانتاج الصناعي الحضري كانتاج للمبادلة النقدية يجد مركزه في المدينة .**

أدت القرون الأخيرة من انهيار الامبراطورية الرومانية وكذلك الغزو البربري الي القضاء علي كثير من قوي الانتاج : تدهور النشاط الزراعي ، تقلص النشاط الصناعي لغياب الأسواق وتوقف التجارة أو اضطرابها ، الأمر الذي أدي الي اختفاء المدن وتدهور ما بقي منها . وعليه لم تكن المدينة تلعب في بدء التكوين الاجتماعي الاقطاعي دورا يذكر ، اذ كان وجودها علي هامش مجتمع يقوم علي الانتاج الزراعي وتكاد تحقق الوحدة الاقتصادية الزراعية لنفسها اكتفاء ذاتيا .

الا أن زيادة انتاجية العمل الزراعي أوجدت ، وخاصة في الاقطاعيات الغنية ، فائضا من المنتجات الزراعية يمكن التخلي عنه ، ومن ثم سبيلا الي النشاط التجاري . هذا في الوقت الذي استمرت فيه بعض المدن ، وخاصة في ايطاليا ، في البقاء علي ساحل البحر الأبيض المتوسط منذ العصور القديمة بنشاطها التجاري الذي لم ينقطع . بل وبدأ هذا النشاط في الازدهار في القرن الحادي عشر مع انحسار سيطرة العرب علي البحر الأبيض (فازدهر اتجار فينيسيا مع الشرق وجنوة وبيزا مع جنوب فرنسا ، حيث طرد العرب من سردينا في ١٠١٠ ومن غرب البحر الأبيض في نهاية القرن) . ثم كان انتعاش التجارة في القرن الثاني عشر مع الحروب الصليبية واقامة الملكيات في فلسطين . ويضاف الي ذلك ابتداء قيام المدن حول النشاط التجاري خاصة في شمال أوروبا . هذه المدن الجديدة التي تمثل قيامها في تطور قوي ذات موقع متميز (أما لوجودها علي مفترق طرق برية أو نهرية ،

أو بالقرب من ميناء صالح ، أو بالقرب من كنيسة هامة أو مكان يحج اليه الأفراد) يمكن اعتبارها في الواقع أسواق أصبحت دائمة . ثم كان الاتصال بين مدن ايطاليا ومدن الشمال واقامة الطرق البرية والمائية في غرب أوروبا في القرن الثاني عشر . ورغم ذلك ظل سكان المدن يمثلون أقلية صغيرة لم تتعد في القرون من الثاني عشر حتى الخامس عشر ١٠٪ من مجموع السكان . وكانوا يمثلون ، على الأقل بالنسبة للمدن الجديدة ، حشالة الريف : أشخاص يعيشون بلا أرض على هامش المجتمع الزراعي ، ومشردون يعيشون على الصدقة التي تخرجها الكنيسة ، واقنان يهربون الى المدينة باحثين عن عمل عارض عند تاجر أو حرفي .

والمدينة في مجموعها ما زالت في أحضان الاقطاع وتحت سيطرته السياسية . وهي تقوم على النشاط التجاري والصناعة الحرفية التي كان يغلب عليها في البداية طابع الصناعة المنزلية التي تأخذ شكل انتاج المبادلة البسيطة (وخاصة صناعة المنسوجات القطنية ، الأدوات المعدنية (بما فيها الأسلحة) ، المنتجات الجلدية ، الخمور) . من الناحية التنظيمية تكاتفت عدة عوامل لتجعل من نظام الطوائف[٤٨] الشكل التنظيمي السائد للنشاط التجاري والحرفي . اذ مست الحاجة الى تنظيم جماعي يحمي أهل المدينة من نبلاء الريف ، وكذلك ضرورة تهيئة أماكن للأسواق العامة لا يمكن تهيئتها الا جماعيا . كذلك وجدت ضرورة حماية أفراد الحرفة من منافسة الأقنان الهاربين من الاقطاعيات بعددهم المتزايد والمتجه نحو المدن الناشئة .

فتجار المدينة منظمون في طائفة تضمن احتكار كل تجارة المدينة في يد أعضائها[٤٩] . وتضع قواعد ممارسة التجارة . كما أنها تحمي أعضاء الطائفة وتعطيهم اعانات مالية ونساعدهم وعائلاتهم . وهم وحدهم الذين ينتخبون موظفي المدينة . والممارسون لكل حرفة منظمون في طائفة تقصر ممارسة الحرفة على أعضائها . كل عضو في الحرفة يباشر النشاط في محل أو ورشة صغيرة تمثل جزء لا يتجزأ من مسكنه وبنم فيها تحويل المادة الأولية ، بفضل

---

(٤٨) Guild system, système de corporations يمكن القول أن نظام الطوائف هذا يجد مصدره التنظيمي التاريخي في نظم الكوليجيا collegia الذي عرفته المدن الرومانية في الفترة السابقة على انهيار الامبراطورية الرومانية . اذ لما اكتشت الصناعة وزادت البطالة حاول الكثير من الحرفيين ترك المدن والانتقال الى الريف بحثا عن عمل . لمنع ذلك لجأت الحكومة الى انشاء جمعيات بين العمال كانت عضويتها في البداية اختيارية ثم ما لبثت أن أصبحت اجبارية . بل حرم على أعضائها ترك المهنة والانتقال الى مهنة أخرى . وذلك للابقاء على الصناعة على ما كانت عليه ولضمان تحصيل الضرائب من العمال ومن تعاونهم . ولما حاول الأفراد الاستقالة من عضوية هذه الجميعات صدر قانون يجعل العضوية ليست فقط اجبارية وانما كذلك وراثية . A. Mazour & J. Peoples, Men and Nation المرجع السابق الاشارة اليه ، ص ١٥٤

(٤٩) نلاحظ للقرب عن المدينة في النشاط التجاري الا اذا دفع مصاريف باهظة ووافق على ممارسة النشاط في أوقات معينة في السنة وفي اطار منطقة محدودة .

استخدام أدوات انتاج بسيطه مملوكه له ، الي مادة مصنوعة يدويا . ويتم البيع كذلك في هذه الورشة . ويلزم صاحب الورشة ، المعلم[٥٠] أو رب الحرفة ، بمراعاة قواعد الطائفة التي تحدد له نوع مواصفات المادة الأولية التي يستخدمها وطرق الانتاج التي يتبعها وكذلك عدد ساعات العمل والثمن الذي يبيع به ، ومن ثم لا منافسة بين أعضاء الطائفة . كما تحدد له قواعد العمل في داخل الورشة : فبالنسبة للصبيان[٥١] الذين يهدفون الي تعلم الحرفة فانهم يعملون لحساب المعلم لمدة سبع سنوات (تبدأ في سن السابعة أو الثامنة) في مقابل أن يأويه المعلم ويتكفل باعاشته ويعطيه مجموعة من الأدوات ويتعهد بتعليمه الصنعة . حتي يصبح عاملا حرا أي « عريفا »[٥٢] يستخدمه المعلم بأجر يومي كمساعد له . وقد يصبح هذا العريف ، بعد عدة سنوات ، معلما يدخل الطائفة كعضو .

هذا وقد قام التنافس في داخل المدينة ، في هذه المرحلة ، بين التجار وأرباب الحرف . ولكن مع ازدياد أهمية المنتجات الحرفية في التجارة وتوسع هذه الأخيرة بدأ التجار في السيطرة علي النشاط الصناعي . الأمر الذي لم يمنع بعض التجار من أن يتحولوا الي أرباب صناعة ولا بعض أرباب الحرف من أن يقوموا بالانتاج للسوق مرتبطين به بطريق مباشر (ومن ثم يقومون بدور التاجر) . ابتداء من هؤلاء بدأ الانتاج الصناعي بدوره يعرف مستوي أعلي في تطور قوي الانتاج ويتحول نحو انتاج المبادلة الذي يهدف الي تركيم رأس المال النقدي (وان كان ما يزال في حدود ضيقة) . تطور قوي الانتاج هذا تم بفضل ادخال فنون انتاجية جديدة وأدوات جديدة (نقلها السوريون من شرق البحر الأبيض الي أوربا الغربية ، ونقلها العرب عن طريق أسبانيا ، وكذلك ما وصل الي أوربا عن طريق الاتصال بين قسطنطينية ومدن ايطاليا)[٥٣] . وكذلك تحت تأثير الحروب الصليبية التي أوثقت الاتصال بين الجزء الشرقي من حوض البحر الأبيض (مركز الحضارات القديمة والحضارة العربية) وأوربا الغربية : فقد تم التعرف علي منتجات أدخلت وأقيمت صناعات لانتاجها ، كما زادت انتاجية الصناعات القائمة لادخال فنون جديدة (كادخال الصبغة والألوان الواردة من الشرق في صناعة النسيج) ولاتساع أسواقها (كما كان الحال بالنسبة لصناعة الزجاج في فينيسيا) ولاستجلاب العمال الفنيين من الشرق (كما فعلت فينيسيا عندما احتلت قسطنطينية في مستهل القرن الثالث عشر) ، كما أنشئت مراكز جديدة لصناعة الأسلحة دفعت التخصص في داخل هذه الصناعة[٥٤] . ثم كان كل أثر ذلك علي نمط

---

(٥٠) the master; le maître.

(٥١) the companions; les compagnons

(٥٢) foreman; contremaître

(٥٣) Heaton ، المرجع السابق ، ص ١١٧ .

(٥٤) المرجع السابق ، ص ١١٨ .

الاستهلاك (اي على تشكيلة ونوع السلع «استهلاكية») في مجتمع أوربا الغربية وخاصة استهلاك النبلاء وسكان المدن .

وهكذا تتطور المدينة ، وقد قامت في احضان الاقطاع ، تطورا يظهر عدوة هذا التكوين الاجتماعي . اذ بالتوسع الاني للاقطاع في الزراعة يكون قد استنفد امكانياته في زيادة الانتاج استجابة للحاجات المتزايدة وخاصة حاجات طبقة النبلاء في زيادة طلبهم على السلع الاستهلاكية الصناعية . كما أن هذه الزيادة تنعكس في اشتغال كاهل الفلاحين بالاصرار على زيادة الريع الذين يتحلون عنه لمالكي الأرض . الأمر الذي يدفع ببعضهم الى ترك الأرض (عندما لا تنجح ثوراتهم على الملاك) . وهنا سيجد الاقنان في المدينة فرصة لتحررهم من وطأة علاقات الانتاج الاقطاعية . يضاف هذا الى تطور الصراع بين الفلاحين وسادة الاقطاع على نحو يدفع الى تغيير شكل الريع الذي يتخلى عنه الفلاح المنتج من الريع العيني الى الريع النقدي . وهو ما يعني امكانية تغير علاقات الانتاج لمن يبقى من الفلاحين في النشاط الزراعي .

ومع تطور المدن امتاز سكانها - بالنسبة لسكان الريف - وأصبح لهم تنظيمهم : في مرحلة أولى يتخلصون من الالتزامات التي يتحمل بها أهل الريف ، ثم يكتسبون من خلال صراعهم مع أمراء الاقطاع - وفي أغلب الأحيان بمقابل مالي - حق تنظيم مدنهم على نحو يسهل لهم القيام بنشاطهم الاقتصادي . ويسعون دائما ليكونوا أحرارا ، في أن يتملكوا (ملكية لا يكون لأمير الاقطاع حق مصادرتها) . وأن يتعاملوا (بالبيع والشراء) ، كما حرصوا على أن تكون لهم حرية الحركة والتنقل (حتى اصبحت الحرية لصيقة بالمدينة بالتقابل مع علاقة تبعية الاقنان اللصيقة بالريف) ، كما طوروا أنظمة ادارية وقضائية وضريبية تتلاءم مع نشاطهم . وأصبح لهم القيام بوظيفة البوليس داخل المدن والدفاع عنها .

وعليه أصبح لسكان المدينة[٥٥] وضعهم المتميز بالنسبة لسكان الريف . هذا الوضع المتميز يستند الى علاقة اقتصادية تمكن المدينة من استغلال الريف من خلال أثمان الاحتكار التي تفرضها المدينة والتي يمكنها من فرضها التنظيم الطائفي للتجارة والصناعة ، وكذلك من خلال التدليس التجاري والربا . ويكون من الطبيعي اذن أن ينظر الى سكان الريف على « انهم وجدوا ليستغلوا »[٥٦] . من هنا يكون التناقض بين المدينة والريف . هذا التناقض

---

(٥٥) burgesses; les bourgeois أي سكان الـ burg ، وهي كلمة تعني في اللغة الجرمانية القرية الكبيرة التي تتمتع ببعض خصائص المدينة . ومن هنا جاءت تسمية الطبقة الرأسمالية بالطبقة البرجوازية اذ تجد لها التاريخية في سكان مدن المجتمع الاقطاعي .

(٥٦) K. Blucher مشار اليه O.C.Cox المرجع السابق الاشارة اليه ، ص ١٣٥ .

يظهر بصفة مباشرة بين سكان المدن وخاصة التجار وعلي الأخص أرباب الحرف وبين من يحصلون علي فائض الانتاج في الزراعة (أي النبلاء ورجال الدين) وبصفة غير مباشرة بين سكان المدينة والفلاحين . ثم يدخل الفلاحون في الصورة بصفة مباشرة . في مرحلة تالية . بالقدر الذي يقومون فيه بانتاج جزء من ناتج عملهم في صورة سلع تباع في السوق ليدفع من ثمنها الريع النقدي للأرض أي بقدر قيامهم بانتاج المبادلة . هذا التناقض سيمثل أحد **التناقضات الأساسية طوال فترة الانتقال من التكوين الاجتماعي الاقطاعي الي التكوين الاجتماعي الرأسمالي .**

الا أن ذلك لا يعني أن سكان المدينة كانوا يمثلون طبقة اجتماعية واحدة منجانسة . اذ كان من الممكن أن نميز في داخل مجتمع المدينة بين الفئة العليا من طبقة التجار ، وصغار تجار التجزئة والحرفيين ، والطبقة العاملة . بينما كانت الفئة الأولي تحكم المدينة . وكان للفئة الثانية في مرحلة تالية حق انتخاب موظفيها ، لم يكن للعمال العاديين « أي نصيب في الحكومة ولا حق استئجار مكان يبيع عليه في السوق ، كما لم يكن له حق تملك محل أو ورشة في المدينة »(٥٧) . ولم تكن المدن « ترحب بالاقنان الذين يهيمون اليها من المناطق الريفية الا لأنهم كانوا يزيدون من عدد العمال في المدن ، وكان القن يستقبل بفتور ان هو حاول أن يشتري قطعة من الأرض داخل أسوار المدينة »(٥٨) . ومن ثم يقوم التركيب الطبقي لمجتمع المدينة أساسا علي وجود طبقتين ، أحدهما (مكونة من كبار التجار وكبار أرباب الحرف الصناعية مع ما بين هؤلاء من تناقض) تملك وتحكم ، والأخري لا تملك ولا تحكم وانما تعمل ، هي الطبقة العاملة . يقوم هذا التكوين الطبقي علي **التناقض بين هاتين الطبقتين(٥٩) . هذا التناقض يصبح فيما بعد العلامة الديالكتيكية الأساسية في التكوين الاجتماعي الرأسمالي(٦٠) .**

علي هذا النحو نشهد نمو انتاج المبادلة البسيط في أحضان التكوين الاجتماعي الاقطاعي ، في ريفه وفي مدنه . ومع تطور هذا النوع من الانتاج من خلال التناقض بين الطبقة الاقطاعية وطبقة الفلاحين ، من جانب ، وبين طبقة التجار والحرفيين من جانب آخر ، ولد التمييز الاجتماعي في داخل الفلاحين الاكثر انتعاشا المرتبطين مباشرة بالسوق (مع

---

(٥٧) Mrs. J.R. Green. Town Life in the Fifteenth Century, London, 1894. Vol. I. p. 193.
مشار اليه في O.C. COX ، المرجع السابق الاشارة اليه ، ص ١٣٠ ، هامش ٤٣ .

(٥٨) J.W. Thompson, The Middle Ages, New York, 1913, p. 738.
مشار اليه في O.C. COX ، المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(٥٩) أنظر في هذا المعني كذلك E Lipson ، المرجع السابق الاشارة اليه ، ص ٣٦٤ وما بعدها .

(٦٠) حتي في داخل الطبقة المالكة رأينا التناقض بين التجار وأرباب الصناعة ، وهو تناقض يجعل مؤقتا سيطرة التجار علي الصناعة ، أنظر E. Lipson ، المرجع السابق ، ص ٤٣٥ .

امكانية تركيبهم بجزء من الفائض) والأفقر من الفلاحين ، وكذلك بين أرباب الحرف المرتبطين مباشرة بالسوق (مع امكانية تركيبهم بجزء من الفائض) وأعمال الطرفين . تلك هي روابط الانتاج الرأسمالية التي تنمو جنينيا من خلال أزمة تفكك الاقطاع . (ولكن عملية تفكك هذا النظام وانطلاق الحيز الاجتماعي تستغرق وقتا طويلا ، ولهذا لم تبرز طريقة الانتاج الجديدة كاملة النمو من طريقة الانتاج الاقطاعية ، وانما استطاعت أن تظهر فقط عندما كان انهيار الاقطاع قد وصل الي مرحلة متقدمة ، كما سنرى في الفصل التالي) .

اذا كانت طريقة الانتاج هذه تمثل ، في مراحل وجودها المختلفة ، الأساس الاقتصادي لمجتمع الأوربي في العصور الوسطي ، فانها تجد التعبير الاداري والفكري عنها فيما اصطلح الكنيسة ورجال الدين [٦١] . فقد كان للكنيسة نظام ووحدة عوضا الانجازات الموضوعية للنبلاء وزودا العالم المسيحي ، رغم اتساعه وتفتت وجود أمراء الاقطاع ، بأساس مشترك للسلطة . ورغم وجود التنازع بين النبلاء ورجال الدين بالنسبة لقضايا معينة ، لم يكن منهما حاجته الي الآخر في سبيل الابقاء علي هذا النوع من التنظيم الاجتماعي الذي مثلت الكنيسة جزءا لا يتجزأ منه .

والواقع أن الكنيسة لم تبدأ في بناء تنظيم يسيطر علي حياة وأفكار كل سكان العالم المسيحي من الملك ابتداء الي القن انتهاء الا في القرن العاشر عندما اصطلحت نظام الرهبنة [٦٢] . وكان هذا التنظيم ، كما رأينا ، اقطاعيا : فبالاضافة الي أن كبار رجال الدين كانوا من العائلات الاقطاعية كان أصغرهم يفتحون أراضي جديدة لحساب كنائسهم ، ممثلين بذلك رأس الحربة في التوسع الاقطاعي . هذا التنظيم الكنسي احتكر ادارة المجتمع الاقطاعي احتكارا يعطي لفكر العصور الوسطي درجه من الوحدة والتماسك ويضع في نفس الوقت حدودا خطيرة علي مجال هذا الفكر . بمعني آخر هو احتكار يعطي الفكر الكنسي في ذات الوقت اساس قوته (بما يعطيه من تماسك) وجذور ضعفه (بما يضيق من أفقه) .

وقد تمثلت النظرة العامة لهذا الفكر الكنسي ، فيما يتعلق بشئون الانسان ، في أن حياة المجتمع هي حياة في عالم أول . هذه الحياة ليست الا تمهيدا واعدادا لحياة أخري خالدة ،

---

(٦١) استعنا في كتابة هذه الصفحات عن الفكر في المجتمع الاقطاعي ، بالاضافة الي المراجع التي سبق ذكرها في بداية الكلام عن طريقة الانتاج الاقطاعية ، بالمراجع الآتية :

J. B. Bernal, Science in History p. 214 – 221 — B. Russell, History of Western Philosophy. Unwin University Books, London, 1962. p. 422 – 452 — J. Schumpeter. History of Economic Analysis, p. 107 & sqq. — A. Wolf, A philosophic and Scientific Retrospect, in, Outline of Modern Knowledge, p. 18 – 19 — M. De Wulf, An Introduction to Scholastic Philosophy, Dover, Inc, New York. 1956, part one.

يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ .

(٦٢) وهو اصطلاح بدأ في كلني Cluny في بورجونيا La Borgogne بفرنسا .

و [illegible] ، ومن ثم كان على المسيحيين أن ينظروا اليها على هذا النحو ، حتى [illegible] ، كي تقدم الكنيسة من حياة المجتمع ثم يمنعها ، على الصعيد العملي ، من أن تهتم [illegible] الاهتمام بشؤون هذه الحياة « الدنيا » أو أن تنشغل بحق بالابقاء على النظام الاقطاعي .

وقد أعمل الفكر الكنسي ، بكل تفاصيله ، السيطرة على الحياة الفكرية في أوروبا في المرحلة الأولى لسيادة طريقة الانتاج الاقطاعية ، مرحلة ساد فيها النشاط الزراعي وعرفت الكنيسة كأكبر مالك للأرض . في مرحلة ثانية ، شهدت قيام المدينة وتطورها ، أدى انشغال الكنيسة بالقضاء ربي أشهرهم الى وضعها ، ابتداء من القرن الثاني عشر ، في موقف يتعارض مع مصالح « المجتمع الزمني » للتجار والحرفيين . اذ في هذه المرحلة الثانية ، مرحلة أزمة التكوين الاجتماعي الاقطاعي ، ظهرت ، تحت تأثير الفكر العلمي للعرب[٦٣] ، أفكار جديدة عدتها الكنيسة خروجا عليها . في البداية تمثل رد فعل الكنيسة في محاولات القضاء على هذا الفكر بالعنف[٦٤] ، ثم بعد ذلك في تغيير لموقفها عن طريق محاولات احتواء بعض الأفكار الجديدة التي تتضمن تغييرا لا يخرج عن اطار التعاليم الأساسية Dogmas [٦٥] ، ثم ما لبثت الكنيسة أن احتاجت ، في رد فعلها حفاظا على وضعها ومكانتها في النظام الاقطاعي ، الى تجنيد كل امكانياتها الفكرية ضد الفكر الجديد لمجتمع المدينة . هذا التجنيد وجد قمة بلورته في فكر المدرسيين[٦٦] الذي ازدهر في جامعات أوربا الوليدة[٦٧]

---

(٦٣) بدأ هذا التأثير للفكر العلمي العربي (الذي عرف أوج ازدهاره في القرون التاسع والعاشر والحادي عشر الميلادية) من خلال بعض الأعمال الفكرية القليلة التي انتقلت الى أوروبا في القرن الحادي عشر . ثم بالفيضان من الفكر العربي الذي ساد القرن الثاني عشر عندما ترجمت أهم مؤلفات العرب والاغريق (ومعظم هذه الأخيرة من نسختها العربية) الى اللاتينية . تمت أهم هذه الترجمات في أسبانيا والبعض منها في صقلية . أنظر :

J Bernal. Science History p. 216 - 219.

(٦٤) للقضاء على كل ما يعد « بدعة في الفكر » قامت الكنيسة بحروب صليبية ، مثال ذلك الحرب الصليبية التي شنتها ضد « الالبيين » Albigenses: Albigenis catharesi وهم أفراد طائفة دينية نشأت في جنوب فرنسا حول مدينة ألبي Albi التي . وقد قامت الحرب ضدهم بأمر أصدره البابا أنوسنت الثالث Innocent III في ١٢٠٩ واستمرت حتى ١٢٢٩ (وانتهت بزيلهم) . كما أقامت الكنيسة نظام محاكم التفتيش Inquisition (التي احتفظت باجراءاتها الداخلية في سرية لا يمكن اختراقها) . هذه المحاكم ، التي وضع أساسها المجلس الكنسي في فيرونا Vérone في ١١٨٣ ، كانت تتولى البحث عن أهل البدعة ومعاقبتهم بل وافنائهم . وفي عام ١٢٣٣ أنشأ البابا جريجوار التاسع Gregoire IX محكمة خاصة أوكلت الى الرهبان الدومينكان لمحاربة انتشار « البدعة الالبية » . ثم ما لبثت أعمال هذه المحاكم أن انتشرت لتغطي كل العالم المسيحي الأوروبي ، ولتسود المسرح الفكري خاصة في ايطاليا (حيث المدن أكثر تطورا من أي مكان آخر في أوروبا) وفي أسبانيا (حيث أثر الفكر العلمي العربي والاغريقي أكثر ما يكون) في القرن الثالث عشر . (ولم يلغ هذا النظام في فرنسا الا في ١٨٠٨ ، ثم أعيد في الفترة من ١٨١٤ - ١٨٣٤) .

(٦٥) كما هو الحال بالنسبة لأفكار سان فرنسيز داسيز (الذي ولد في اسيز في اقليم أومبريا بايطاليا . ١١٨٢ - ١١٢٦) ، التي كانت تعكس ثورة الفقة الأفقر من رجال المدينة ضد التكالب على الحياة الدنيا والثروات الزائدة عن الحد . وقد أسس سان فرنسوا داسيز طائفة الرهبان الفرنسيسكان التي أبدت عداء للنظام الفكري الأرسطو طاليسي وذلك الخاص بالرهبان الدومينكان .

(٦٦) The Scholastics: Les Scolastiques

(٦٧) نشأت هذه الجامعات أولا في باريس (التي اكتسبت اعترافا بوجودها في ١١٦٠) ، ثم في بولونيا ، واكسفورد (التي بدأت كفرع لجامعة باريس في ١١٦٧) وكمبردج في ١٢٠٩ ، ثم في مدن أوروبية أخرى . بتحول بعض المدارس

(وهي جامعات كانت تقوم أساسا على تدريس اللاهوت بقصد تكوين رجال الدين) وعلى الأخص فكر سان توماس الاكويني[٦٨] . ومن هنا كان تعاطفهم الغريزي مع أرسطو طاليس . ذلك المدافع الكبير عن « النظام The Order » .

ويتمثل جوهر فكر المدرسيين في محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة ، أي بين الايمان والعقل أو بين الوحي ومحاولات تفسير الكون عن طريق نور العقل البشري . وهي محاولة تكمل في الواقع الصورة التي بدأها العصر القديم واستمرت في الفكر الاسلامي طوال القرون من التاسع حتى الحادي عشر[٦٩] . وتقوم على استخدام الجانب الاستنباطي من منهج أرسطو (والاستعانة كذلك ببعض حججه) في معالجة أوضاع المجتمع الاقطاعي . هذا الفكر الذي يغلب عليه الطابع اللاهوتي مكن الكنيسة من أن تستمر في الضغط على الفكر الجديد لمجتمع المدينة طوال ثلاثة قرون أخرى .

وفي أحضان هذا الفكر اللاهوتي ولد بعض **الفكر الاقتصادي** . وقد دار هذا الفكر حتى القرن الرابع عشر حول فكرتين أساسيتين . :

- فكرة أولى . أقل في الأهمية ولكننا نعرضها أولا لننتهي منها . تدور حول أدانة **الفائدة**

---

* الكاثوليكية التي كبر عدد روادها وازدادت أهميتها . هذه الجامعات . التي استمدت في تنظيمها من تجربة مدارس الاغريق القديمة والمدرسة العربية . كانت تعطي تعليما يجد مركزه في الدراسات اللاهوتية ولكنه يؤسس على علم تدريس محدود لما يسمى « بالفنون الحرة السبعة » . الثلاثي المكون من مواد قواعد اللغة والخطابة والمنطق . والرباعي المكون من الحساب والهندسة والفلك والموسيقي (وكان يتم تدريسها على أساسا رمزي وعلمي . مقتفين في ذلك أثر الجامعات الاسلامية) . على هذا الاساس يتم تدريس الفلسفة للوصول أخيرا الى محور الدراسة أي اللاهوت . وقد أهتمت بعض الجامعات بالطب والقانون . واشتركت كل الجامعات في جانب دراسة التاريخ والآداب منها . وكان منهج التدريس في هذه الجامعات يتمثل أساسا في المحاضرات والمناقشات العلمية تحت اشراف أستاذ نظرا لقلة الكتب . هذه الجامعات مثلت في البدء بؤرة الحياة الفكرية الأوروبية . ثم أصبحت . باستثناء القليل منها . معاقل الحفاظ على الافكار المستقرة وعائقا لكل تقدم ثقافي .

(٦٨) نشأ St. Thomas Aquinas: St. Thomas D'aquin (١٢٢٥ أو ١٢٢٧ - ١٢٧٤) في روكاسيكا Roccasecca بالقرب من مدينة نابولي بايطاليا في عائلة من الفرسان . وقد درس في مونت كازينو . ثم دخل في طائفة الرهبان الدومنيكان التي لم يكن قد مر طويلا على انشائها . ثم هو يتلقى تكوينه الأولي في اطار هذه الطائفة في نابولي ليرسل بعد ذلك الى باريس ثم الى كولونيا حيث يوجد الفيلسوف والمفكر اللاهوتي الدومنيكي البيرلوجراند Albert Le Grand (١١٩٣ - ١٢٨٠) ليتتلمذ عليه . ويحقق سان توماس تقدما كبيرا في الدراسة اللاهوتية على يد أستاذه . تقدما يخول له الحصول عي درجة الأستاذية من جامعة باريس وأهم مؤلفاته هي Summa Theologiae. Summa contra Gentiles وقد سادت أفكاره في الفكر الكنسي ليصبح نظامه الفلسفي أساسا لكل تعليم ديني كاثوليكي . وهو ما تأكد (من الناحية الشكلية) بأمر اصدره البابا ليو الثالث عشر في ١٨٧٩ Leo XIII .

(٦٩) الواقع أن فكر المدرسيين . وعلى الأخص فكر سان توماس الاكويني . انما يمثل استمرارا للنقاش الذي دار بين الغزالي (١٠٥٨ - ١١١١) الذي حاول أن يعذر من عدم جدوي محاولة التوفيق بين القرآن والفلسفة ، وابن رشد Averroș (١١٢٦ - ١١٩٨) الذي جادل في ذلك . وعليه لا يكون تصوير المجتمع المراد بناؤه في مصر حاليا . في تسعينات القرن العشرين . على أنه مجتمع الايمان والعلم الا انعكاسا لاتجاه ما زال يعيش الصراعات الفكرية للقرنين الحادي عشر والثاني عشر .

من [illegible] تلك التي قسمها أرسطو .

لنا فكرة ثانية ، وهي الأهم فهي فكرة الثمن العادل[٧٠] . مؤدي هذه الفكرة أنه يجب لكل سلعة ثمن عادل يرتكز أساسا علي نفقة الانتاج . ابتداء من نفقة الانتاج هذه يستطيع البائع أن يحقق ربحا معقولا يسمح له بالحياة (هو ومن يعولهم) وفقا لمستوي المعيشة الذي يتمتع به أفراد طبقته . وتكون كل محاولة لتحقيق كسب أكبر مخالفة لقواعد الأخلاق المسيحية . هنا يسعي الفكر الي تحديد الثمن « العادل » وليس الي تفسير « الثمن الجاري » في السوق . غير أن البدء في تحديد الثمن العادل بنفقة الانتاج يعكس أن اهتمام المدرسيين ينصب علي مجال الانتاج . ولكن أي انتاج ؟ انتاج المبادلة الصغير حيث يقوم بالنشاط الانتاجي أفراد مستقلون يبيعون جزءا من منتجاتهم في السوق في مقابل ايراد يستخدمونه في شراء سلع يقومون هم أنفسهم باستعمالها . وماذا عن التاجر وعن الثمن الذي يبيع به ؟ في البداية أدان الفكر المدرسي التجارة كنشاط (ناهيا بذلك منحي أرسطو ، كما سبق أن رأينا) ، ولكن مع ازدياد نشاط التاجر أعفاه الفكر المدرسي من الادانة الأخلاقية اذا ما باع السلعة بثمن أعلي مما دفعه في شرائها في حالتين : حالة ما اذا خصص الكسب المتحقق لغرض ضروري أو نبيل (لاعاشة عائلته أو مساعدة محتاج) ، وحالة ما اذا اشتري شخص دون وجود نية لبيع عند الشراء . ثم طرأت الية في بعد ، وكان في هذه الأثناء قد حسن من الشيء بطريقة أو بأخري ، أو كان قد تحمل مخاطرة في نقل الشيء من مكان الي آخر ، أو كانت الأثمان قد تغيرت بتغير المكان أو الزمان . (بعبارة أخري يتجر التاجر من الادانة الأخلاقية اذا ما سلك سلوك المنتج الصغير) . وفيما عدا هاتين الحالتين لم يعف التاجر من الأدانة الأخلاقية في نظر المدرسيين .

ذلك هو جوهر فكرة الثمن العادل . هذه الفكرة وان كان قد انتهي بها الامر ، مع التوسع في النشاط التجاري وتعميم انتاج المبادلة وقيام قوي السوق التلقائية بتنظيم النشاط الاقتصادي ، الي أن تفقد سيطرتها علي العقول ، كان لها الفضل ، بارتكازها علي نفقة الانتاج ، في أن تبقي عادة علي التفكير في « القيمة » في مجال الانتاج راسخة في وعي المتجين أنفسهم ، وتكون بذلك قد أثبتت أنها أكثر ما تركه المدرسيين أثرا في مجال الفكر الاقتصادي .

هذا وقد شهدت الفترة الأخيرة ، في القرن الرابع عشر ، من فكر المدرسيين ارهاصات فكر اقتصادي يشغل بقضايا القيمة والأثمان ، يشغل بمشكلات النقود وخاصة النقود المعدنية ، بمشكلات المبادلة مع الخارج وبالتحركات الدولية للذهب والفضة ، كما يشغل

(٧٠) The just price: Le juste prix.

بالفائدة والربح[٧١] . ولكنها مشكلات تتعلق بظواهر تنتمي الى طريقة الانتاج الرأسمالية الوليدة التي بدأت تفرض وجودها ، والتي شهدت فيما بعد ، مع قيامها وتطورها ، مولد علم الاقتصاد السياسي وتطوره . قبل أن نبدأ في دراسة مولد هذا العلم وتطوره قد يكون من المفيد ، على الأقل في مجال المقارنة ، أن نتعرف على أمثلة من الفكر الاقتصادي العربي الذي تبلور في القرن الرابع عشر .

(٧١) أنظر شومبيتر ، تاريخ التحليل الاقتصادي ، ص ٩٢ - ٩٤ .

٣ - الفكر الاقتصادي العربي[٧٢] في القرن الرابع عشر[٧٣] .

يمكن اعتبار المجتمع الاسلامي في شمال أفريقيا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر مجتمعا يقوم على انتاج المبادلة الصغير الذي يغلب عليه الطابع الزراعي ، أي مجتمعا ينم فيه الانتاج والمبادلة بواسطة صغار المنتجين الذي يتملكون وسائل الانتاج فيما عدا الأرض . فهذه لم تكن مملوكة في مصر للمنتج المباشر . اذ كان للسلطان حق مباشر على مساحة كبيرة من الأرض الزراعية (تقارب نصف المساحة المزروعة) يمكنه من الحصول على فائض الانتاج يعيش عليه ويضمن اعاشة عدد من المماليك (أي ممن اعتقوا من العبيد) يعيشون في نفس الوقت حرس السلطان وجزءا من الجيش . أما باقي الأرض فيقطعها السلطان على الامراء لكل منهم مساحة تتناسب مع رتبته العسكرية[٧٤] . ويكون له أن يحصل على فائض الانتاج الزراعي في مقابل تعهده بالتزامات قبل السلطان تتمثل أساسا في اعاشة عدد من المماليك هم في نفس الوقت حرس للأمراء وأفراد في جيش السلطان . غير أن حقهم هذا على الأرض لم يكن يورث (على عكس الحال في ظل التكوين الاجتماعي الاقطاعي في أوربا)[٧٥] . الى جانب انتاج المبادلة هذا كان يوجد بطبيعة الحال انتاج بقصد اشباع

---

(٧٢) تقديم الفكر العربي تقديما متوازنا مسألة هامة (بالنسبة لفكر الغربي) ومهمة في المغرب (بالنسبة لفكر بن خلدون) دراسة تحتوي حوانب التشاؤم الحالي والفكري . هذه الدراسة التي تمثل موضوع المحاولة في الفترة الحالية عند كل سنوات مضافة ما زالت في بداية الطريق . وعلة تركيز الاهتمام التي تقدمها بالنسبة للفكر غربي وابن خلدون على وجه الخصوص ، قراءة تستهدي بمنهج عام لتاريخ المجتمع الانساني . كما تستأنس بمصر فكر دارس عن المجتمع العربي في شمال أفريقيا (شرقه وغربه) في هذه الحقبة التاريخية على نحو يمكنها من أن تضعها (أي الأفكار) في وضعها التاريخي من حيث الوقائع الاجتماعية ومن حيث الفكر الاجتماعي بصفة عامة .

(٧٣) يلاحظ أننا نستعمل الا يدخل الفكر العربي تحت فكرة « العصر الوسطى » ، لأن « العصر الوسطى » بما تتضمنه من مستوى حضاري (يتوافق مع نوع من التنظيم الاجتماعي) تمثل جزءا لا يتجزأ من تاريخ أوربا التي كتبت التاريخ انطلاقا من تاريخها هي ، اذ بعد أن كتبت تاريخها حاولت أن توسع من تاريخها ليصبح تاريخ العالم . وهو ما يتعين رفضه لأن لكل جزء من أجزاء المجتمع الانساني تاريخ . هذا التاريخ يتعين أن يكتب ابتداء من تاريخ هذا الجزء ليبين المراحل المختلفة لتطور المجتمع في هذا الجزء من العالم (الذي قد يتمتع ، في نفس الحقبة الزمنية ، بمستوى حضاري يختلف عن المستوى الحضاري لأجزاء أخرى من المجتمع الانساني) . فالقول « بالعصر الوسطى » العربية يعني التسليم بأن المستوى الحضاري للمجتمع العربي (بما احتوى من مجتمعات ذات حضارات قديمة ، كالحضارات المصرية ، والبابلية ، والفينيقية) كان لا يختلف عن المستوى الحضاري للمجتمع الأوروبي في العصور الوسطى ، وهو ما ليس بصحيح . قولنا هذا لا يعني :

- ان كتابة هذا التاريخ (كتابة تاريخ الجزء) انما تتم استخدام منهج علمي يكون صحيحا لكل الدراسات التي تنتسب موضوعها على المجتمع الانساني في تطوره .

- كما أنه لا يعني أن تاريخ جزء من المجتمع لا يمكن تصوره تصورا صحيحا خارج عملية تصور المجتمع الانساني في مجموعه . هذا ويلاحظ أن نفرا غير قليل من كتاب التاريخ العرب المعاصرين أنفسهم يقعون في هذا الخطأ .

(٧٤) هؤلاء كانوا يقومون كذلك بالوظائف الادارية ، والى جانبهم كان يوجد موظفون مدنيون .

G. Wiet, Les Sultans Mamlouks (1250 – 1517), ch. VII, in, Précis de l'histoire d'Egypte, par divers historiens et archéologues, Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire, Tome deuxième, 1932, p. 236 – 285.

أنظر كذلك . الدكتور علي ابراهيم حسن ، مصر في العصور الوسطى

(٧٥) في العصر المملوكي قسمت أرض مصر الى أربعة وعشرون قيراطا . اختص السلطان نفسه بأربعة قراريط والأمراء بعشرة والاجناد بالعشرة الباقية . كما وجدت بعض الملكية الحرة وملكية الوقف من عصور سابقة . وكانت القاعدة العامة أن

حاجات المنتجين المباشرين .

القول بذلك لا يجعلنا نغفل أهمية النشاط التجاري وما يتبعه من نشاط صناعي حرفي . اذ تتميز هذه الفترة بالانتعاش الكبير لتجارة ايطاليا مع الشرق . وهنا يعود لمصر دورها الرئيسي كملتقى للتجارة بين الشرق والغرب ، فعندما تصب منتجات الشرق في طريق بحري يربطها بالهند وجنوب شرق آسيا وآخر يربطها بزنزبار وشرق أفريقيا . واليها تصل المنتجات الأوربية التي تمثل مقابلا لمنتجات الشرق ، والاسكندرية لذلك ترتبط بفينسيا وبمدن شمال غرب أوربا بطريق البحر . كما يوجد طريق للتجارة بينها وبين الشمال الغربي لأفريقيا ، حيث بلدان المغرب التي كانت هي الأخري ملتقى للتجارة بين أوربا وغرب أفريقيا .

= الاقطاع شخصي لمدة محدودة أو لحين العزل أو لمدي الحياة . وتعود الأرض دائما للسلطان . سعيد عبد الفتاح عاشور . الفلاح والاقطاع في عصر الأيوبيين والمماليك . في . الأرض والفلاح في مصر علي مر العصور . الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٢١٨ - ٢١٩ .

(٧٦) هو تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (نسبة الي مقريز ، وهي محلة في بعلبك ببنان) . ولد في أسرة ترجع الي مصر بالجمالية في القاهرة في عام ١٣٦٤ م (٧٦٦ هـ) . وأقام بمصر وتوفي بها ١٤٤٢ م (٨٤٥ هـ) . تتلمذ علي ابن خلدون . وعمل بديوان الانشاء (الشئون الخارجية) ثم قاضيا ثم أستاذا للحديث ومحتسبا للقاهرة والوجه البحري (الاشراف علي الشئون الاجتماعية والاقتصادية للسكان) ثم عاد الي التدريس . وأقام في خارج مصر لفترات من عمره (١٠ سنوات بدمشق وخمس سنوات بمكة) . وله مؤلفات كثيرة ينصب منها ما أنتجه في فترة نضوجه الفكري أساسا علي التاريخ . وهو كبير مؤرخي مصر في العهد الاسلامي . ومؤلفاته نوعان : كتب موسوعية كبيرة ، أكثرها ما علي فيه بتاريخ مصر الاسلامية ، اذ وضع ثلاث كتب في تاريخها السياسي من الفتح العربي الي مصر في عهد المماليك . كما كتب في تاريخ مصر العمراني والبشري (أهمها « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » أو ما يعرف بالخطط المقريزية ، و « كتاب المقفي الكبير في تراجم أهل مصر والوافدين عليها ») . أما النوع الثاني من كتبه فهي الكتب الصغيرة التي عني في بعضها بالتاريخ لبعض النواحي الاجتماعية والاقتصادية في العالم الاسلامي عامة أو في مصر خاصة . ويدخل في هذه الطائفة من كتبه الكتاب الذي نهتم به في دراستنا هذه . (أنظر الأبحاث التي ألقيت في حلقة عن المقريزي نظمتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية في ١٩٦٦ ، ونشرت بعنوان دراسات عن المقريزي ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر . القاهرة ١٩٧١) .

ويتناول المقريزي تاريخ المجاعات في هذا الكتاب الذي عنونه « اغاثة الأمة بكشف الغمة . أو تاريخ المجاعات في مصر » . كتبه في عام ١٤٠٤ م عقب فترة طويلة من المجاعات غطت السنوات من ١٣٩٢ الي ١٤٠٤ ميلادية . وهو يعالج في الواقع الأزمة الاقتصادية في مجتمع سابق علي المجتمع الرأسمالي . واذا ما نظرنا الي هذا الكتاب من الناحية المنهجية وجدناه يتميز بتركيب منطقي . فالمقريزي يقدمه في فصول أربعة : في الفصل الأول يقدم المقريزي عرضا تاريخيا للمجاعات التي عانت منها مصر وخاصة في الفترة الاسلامية من تاريخها ، وهو فصل ذو طبيعة وصفية . وفي الفصل الثاني يعرض المؤلف لأسباب المجاعات بصفة عامة ومجاعات عصره بصفة خاصة . فاذا ما عرفت الأسباب يبين المقريزي في فصل ثالث أثر المجاعات علي « الناس بأقليم مصر » . في هذا الفصل الذي هو « في ذكر أقسام الناس وأصنافهم وبيان جمل من أحوالهم وأوصافهم » لا يأخذ المقريزي المجتمع المصري ككل يغيب التمييز الاجتماعي عن داخله ، وانما هو يميز في هذا المجتمع سبع فئات اجتماعية تختلف أحوالها أثناء المجاعة : أهل الدولة ، ومياسير التجار وأولو النعمة والترف (وهم اغنياء التجار وأغنياء القوم) . أصحاب البر وأرباب المعايش (أي المتوسطون من التجار) ، والمزارعون (وهو يفرق بين أغنياء المزارعين والفلاحين) . وأكثر الفقهاء وطلاب العلم وصغار كتاب الدولة ، والحرفيون وأصحاب المهن الحرة والأجراء (الفعلة) ونحوهم . وأخيرا أهل الخصاصة والمسكنة الذين يعيشون علي هامش المجتمع بفضل الصدقة ، أما الفصل الرابع من الكتاب فيتضمن ما يقترحه المقريزي من علاج أي « ما يزيل عن العباد هذا الداء ويقوم لمرض الزمان مقام الدواء » ، وذلك للخروج من حالة المجاعة وتفادي وقوعها في المستقبل . وهنا يركز المقريزي علي ضرورة مواجهة مشكلة النقود المستعملة في التبادل ومعالجة الموقف من حيث نوع النقود المتداولة ، وهنا يوصي بأن يقتصر علي استعمال الذهب والفضة دون المعادن الأخري ، ومن حيث كمية النقود التي ينبغي ألا يكون مغالا فيها من الأصل كما يلزم انقاصها في حالة المجاعة . أنظر مؤلفه هذا ، طبعة دار ابن الوليد ، بيروت ، ١٩٥٦ .

وفي العصر الحديث ظهرت والنشاط الصناعي الغربي تزدهر بعض المدن وتصبح مركزا للنشاط الفكري ، وتسيطر القاهرة وتونس وقسطنطينية وتلمسان وفاس وغرناطة الكثير من الفكر ، وخاصة ذلك المتعلق بالتاريخ . وفي أحضان التاريخ أو فلسفة التاريخ نجد الفكر الاقتصادي .

في اطار الفكر الاقتصادي نركز على مثالين من الفكر العربي بشأن نوعين من الظواهر الاقتصادية : الأول يتعلق بالظواهر النقدية مستمده من فكر المقريزي[٧٦] ، والثاني يخص ظاهرة القيمة كما يعالجها ابن خلدون[٧٧] .

أولا : يهتم المقريزي بالمشكلات الاقتصادية ويقدم لنا أفكارا عن بعض الظواهر النقدية . وهو ما يظهر في دراسة يختص بها ظاهرة المجاعة أو ما يساوي الأزمة في مجتمع سابق على المجتمع الرأسمالي[٧٨] . فمن وصفه لمختلف المجاعات التي عرفتها مصر يبين لنا أننا بصدد موقف يتميز بنقص في انتاج قيم الاستعمال أي نقص في المنتجات والسلع وارتفاع في أثمانها ، كل الأثمان . وهو نقص يرجع ، في رأي المقريزي ، الى اسباب طبيعية وأسباب غير طبيعية . أذ فيما يتعلق بأسباب المجاعات بصفة عامة يحدثنا المقريزي عن أسباب طبيعية : «كقصور جري النيل في مصر ، وعدم نزول المطر بالشام والعراق والحجاز وغيره» ، والكوارث الطبيعية الأخرى[٧٩] . أما فيما يتعلق بمجاعات عصره فتوجد لها أسباب غير هذه الأسباب الطبيعية ، وهي أسباب اجتماعية ، بعضها سياسي والبعض الآخر اقتصادي . اليك بيان هذه الأسباب الاجتماعية :

١ - أولها سياسي ، ويتمثل في فساد الادارة فسادا يحدث أثرا مباشرا على الانتاج في مجتمع لعبت فيه الدولة دائما ، والدولة المركزية ، دورا هاما . يضاف الى هذا الفساد ما

---

(٧٧) هو عبد الرحمن بن خلدون . ولد في تونس في عام ١٣٣٢ م من أسرة عربية أجبرت على النزوح من الأندلس . وعمل بوظائف كثيرة في شمال أفريقيا ثم جاء لاجئا الى القاهرة في ١٣٨٢ م . ولم يلبث أن عقد خلال اقامته المديدة بها حلقات دراسية كثيرة . ومات في القاهرة في عام ١٤٠٦ م . وابن خلدون هو أبو علم الاجتماع وفلسفة التاريخ . كتب الجزء الأول من «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» . وفي مقدمته التي تحتوي على فلسفة التاريخ عنده ، يقدم ابن خلدون ، أربعة قرون ونصف قبل كارل ماركس وثلاثة قرون من قبل فيكو Vico ، نظرة في تطور المجتمع الانساني تقترب من المادية التاريخية . ومن هنا كان اعتبار هذه المقدمة أهم من الناحية العلمية مما احتواه كتابه من أخبار المغرب . وهذا ، جعل كتابه يشتهر «بمقدمة ابن خلدون» Les Prolégomènes وقد رجعنا في كتابة الفكر الاقتصادي عند ابن خلدون الى طبعة المكتبة التجارية الكبرى ، بالقاهرة (وهي طبعة لا تحمل تاريخا) .

(٧٨) يتعين عدم الخلط بين الأزمة في مجتمع سابق على المجتمع الرأسمالي حيث يتميز الموقف بنقص في المنتجات والسلع (كقيم استعمال) وارتفاع في أسعارها ، والأزمة في مجتمع رأسمالي حيث يتميز الموقف بزيادة في السلع (كقيم مبادلة) وزيادة نسبية للقصور النسبي للقوة الشرائية ، وتنعكس في تكدس السلع في الأسواق وانخفاض الأثمان والأرباح والأجور وتعطل جزء معتبر من القوة العاملة وجزء من الطاقة الانتاجية المادية للمجتمع في كل أنواع النشاط الاقتصادي .

(٧٩) المقريزي ، نفس المرجع ، ص ٤١ .

يمارسه أهل الدولة من سياسة احتكارية . ففي أثناء المجاعة كانت توجد كميات كبيرة من الغلال تحت أيدي « أهل الدولة » بفضل ما تفرضه من ضرائب مرتفعه جدا (لم يسبق لها مثيل) يجري تحصيلها عينا . ولم يكن الناس بمستطيعي الوصول اليها الا بدفع الاسعار التي يفرضها « أهل [٨٠] .

٢ - والسبب الثاني اقتصادي ويوجد في مجال الانتاج ويتمثل في زيادة كبيرة في الريع العقاري في الزراعة ، أو ما يسميه المقريزي « أجرة الفدان من الطين » . كما « تزايدت كلفة الحرث والنثر والحصاد وغيره »[٨١] لارتفاع أثمان البذور وأجر العمال (الذين نقص عددهم كثيرا) . ويزيد علي ذلك أن الدولة زادت من عدد ساعات عمل السخرة الذي يقوم به « أهل الفلح » في بناء الجسور وحفر قنوات الري[٨٣] . وقد كان لكل هذه العوامل آثار غير مواتية علي الانتاج الزراعي أدت الي نقصانه ، خاصة في جو من الارهاب والظلم كانت الادارة تمارسها في مواجهة « أهل الريف » مما دفع بالفلاحين الي هجرة الأرض[٨٤] . هنا يتكلم المقريزي عن عوامل تنحصر كلها في مجال الانتاج الزراعي وتتعلق بمظهره العيني . وتؤدي الي نقصان الناتج ومن ثم الي تقلب أثمان المنتجات الزراعية نحو الارتفاع . الا أنه لا يقف عند هذا الحد ، وانما يضيف ، في تفسيره لارتفاع الأثمان ، عاملا آخر يتعلق بالمظهر النقدي للحياة الاقتصادية .

٣ - فالسبب الثالث اذن اقتصادي ويتمثل في العامل النقدي . فالمقريزي يجد في زيادة كمية النقود المطروحة في التداول ، وخاصة كمية نوع معين من النقود المعدنية ، سببا لارتفاع المستوي العام للأثمان ، نقول المستوي العام لأنه يتكلم عن ارتفاع أثمان كل السلع والخدمات[٨٥] . وفي بيان هذا السبب يعطينا المقريزي تاريخا مختصرا للنقود في مصر[٨٦] : من استعمال النقود الذهبية (الدينار) . الي ادخال النقود الفضية (الدرهم) في القرن

---

(٨٠) نفس المرجع ، ص ٤٣ - ٤٥ .

« وكانت الغلال تحت أيدي أهل الدولة وغيرهم كثيرة جدا لأمرين : أحدهما احتكار الدولة الأقوات ومنع الناس من الوصول اليها الا بما أحبوا من الأثمان . والثاني زكاء الغلال في سنة ست وثمانمائة (هجرية م . د .) فانه حصل من ما لم يسمع بمثله في هذا الزمن » نفس المرجع ص ٤٢ .

(٨١) المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٨٢) نفس المرجع ، ص ٤٢ .

(٨٣) المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(٨٤) المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٨٥) « وفي سنة ست وثمانمائة شنع الأمر . وارتفعت الأسعار حتي تجاوز الأردب القمح أربعمائة درهم . وسري ذلك في كل ما يباع من مأكول ومشروب وملبوس ، وتزايدت أجرة الأجراء - كالبناة والفعلة وأرباب الصنائع والمهن - تزايدا لم يسمع بمثله فيما قرب من هذا الزمن » . نفس المرجع ، ص ٤٢ .

(٨٦) المرجع السابق ، ص ٦٣ - ٧٢ .

العاشر الميلادي لتستخدم في مرحلة أولي في تسويه المدفوعات التي تأخذ مكانا بمناسبة انفاقات الحياة اليومية للعائلات ، وهي نقود لم تحظ بقبول عام من جانب الأفراد الا في القرن الثالث عشر الميلادي[٨٧] . ذلك الي جانب استخدام سلع أخري غير المعادن كنقود في تسوية المعاملات ذات القيمة الصغيرة في مختلف مناطق مصر . ثم هو يحدثنا عن ادخال العملة النحاسية (الفلوس) ، أولا علي نطاق جد محدود في تسوية المعاملات اليومية الصغيرة القيمة ، لتصبح العملة السائدة في القرن الثالث عشر[٨٨] . وهو يري في زيادة كمية هذه العملة الأخيرة ، الفلوس ، علي حساب العملات الأخري ، سببا من أسباب ارتفاع الأثمان .

علي هذا النحو يبرز المقريزي أثر العامل النقدي . فيما يتعلق بكمية النقود ، علي النشاط الاقتصادي من خلال أثرها علي المستوي العام للأثمان . ويكون بذلك من رواد « النظرية الكمية في قيمة النقود »[٨٩] .

من ناحية أخري يلاحظ المقريزي اختفاء النقود الفضية تاركة المجال للنقود النحاسية تتداول في أثناء فترة المجاعة بعد أن كان النوعان من النقود يوجدان جنبا الي جنب في التداول . فمع شحة المنتجات وارتفاع الأسعار بدأت العملة الفضية في الاختفاء . وذلك لأن ارتفاع أثمان المنتجات (بما فيها الفضة كمعدن له استخدامات أخري في صناعة الحلي والأواني) يعني انخفاض القوة الشرائية للنقود ، وهو ما يدفع الأفراد الي تفضيل تحويل القطع النقدية الفضية (وهي مصنوعة من معدن أثمن من النحاس) لاستخدامها كمعدن[٩٠] (أي في صناعة الحلي والأواني)[٩١] : في موقف يتميز بارتفاع الأثمان وباستخدام عملتين احداهما مصنوعة من معدن أثمن من معدن الأخري ، تميل العملة المصنوعة من المعدن الثمين الي الاختفاء من التداول النقدي مفسحة المجال للعملة الأخري

---

(٨٧) المرجع السابق ، ص ٦٤-٦٦ .

(٨٨) واما الفلوس فانه لما كان في المبيعات بمقرات تقل عن أن تباع بدرهم أو جزء منه ، احتاج الناس من أجل ذلك في القديم والحديث من الزمان الي شيء سوي نقدي الذهب والفضة يكون بازاء تلك المحقرات ، لم يسم أبدا علي وجه الدهر ساعة من نهار مما عرف من أخبار الخليفة نقدا ، لا ولا أقيم بمنزلة أحد النقدين » . المقريزي ، المرجع السابق ، ص ٦٦-٦٧ .

(٨٩) يعبر عن النظرية الكمية في قيمة النقود The quantitative theory; la théorie quantitative كما يقدمها ايرفنج فيشر Irving Fisher (وهو اقتصادي أمريكي كان يقوم بتدريس الاقتصاد في جامعة ييل ، وعاش بين ١٨٧٦ و ١٩٤٧) في صورة م ث = ن س + ن١ س١ ، حيث م ترمز لحجم المعاملات ، ث متوسط الثمن في المعاملات ، ن لكمية النقود المعدنية والورقية ، س لسرعة تداول هذه النقود . ن١ لكمية نقود الودائع ، س١ لسرعة تداول هذه النقود .

وكان فيشر هو الذي أدخل علي هذه المعادلة نقود الودائع وسرعة تداولها . انظر :

J. Marshal & J. Lecaillon. Les flux monétaires. Editions Cujas, Paris, 1967 p. 78 et sqq.

(٩٠) المقريزي ، المرجع السابق الاشارة اليه ، ص ٧١-٧٢ .

(٩١) المرجع السابق ، ص ٦٤ .

لتسود في التداول . وهكذا تطرد العملة الرديئة العملة الجيدة : وبهذا نجد في فكر المقريزي جوهر ما يسمي بقانون جريشام[٩٢] .

وهكذا نجد في كتابات المقريزي عن التاريخ مثلا للفكر الاقتصادي المصري في القرن الرابع عشر الميلادي .

ثانيا : أما المثل الثاني للفكر الاقتصادي العربي في هذا القرن فنجده في الفكر الاقتصادي لابن خلدون ، وخاصة ذلك المتعلق بظاهرة القيمة . هذا الفكر نجده في أحضان فكر ابن خلدون المتعلق بالتاريخ وفلسفة التاريخ .

فالواقع أن ابن خلدون يهتم بالمجتمع الانساني ككل ، وبالمجتمع الانساني في حركته التاريخية : الهدف الذي يضعه لنفسه هو كتابة تاريخ العرب والبربر في القطر المغربي[٩٣] . ولكي يقوم بذلك يحرص أولا علي تعريف المقصود بالتاريخ ، فيقول ان فن التاريخ وان كان « في ظاهره لا يزيد علي أخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأول ، تنمو فيها الأقوال ، وتضرب فيها الأمثال » الا أنه « في باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق . فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق ، وجدير بأن يعد في علومها وخليق »[٩٤] . وكتابه التاريخ بمفهومه هذا استخداما لمنهج التحقيق وتعليل الكائنات لا تكون ممكنه الا اذا علم المؤرخ طبيعة المجتمع الانساني بصفة عامة والمباديء التي تحكم حركته : « فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالامكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ، ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضي طبعه وما يكون عارضا لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له . واذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانونا في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه . وحينئذ فاذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه ، وكان ذلك لنا معيارا صحيحا يتحري به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه »[٩٥] .

---

(٩٢) Sir Thomas Gresham (١٥١٩ - ١٥٨٩) ، وهو منظم وتاجر ومصرفي انجليزي . وقد عرض أرسطوفان Airstophane وأريزم N. Oresme (وهو مفكر من المدرسيين معروف بكتاباته عن النقود وخاصة مؤلفه « في أصل النقود وطبيعتها وتطورها ١٣٢٠ - ١٣٨٢) هذا القانون من قبل ، كما قام بذلك عدد آخر من كتاب القرن السادس عشر . أنظر :
Dictionnaire des Science économiques, tome, I, p. 588,

(٩٣) وفي ذلك يقول ابن خلدون : ويخلص « قصدي في التأليف المغرب وأحوال أجياله وأممه وذكر ممالكه ودوله دون ما سواه من الأقطار لعدم اطلاعي علي أحوال المشرق وأممه » . المقدمة ، ص ٣٣ .

(٩٤) المرجع السابق ، ص ٣ - ٤ .

(٩٥) المقدمة ، ص ٣٧ - ٣٨ . وقد نهج ابن خلدون هذا المنهج في كتاباته لتاريخ المغرب ، ويقول لنا أنه فعل ذلك « داخلا من باب الأسباب علي العموم الي الأخبار علي الخصوص » ، ص ٧ .

ويجد المؤرخ هذه المعرفة في مجال علم جديد له موضوعه ومنهجه يخصص ابن خلدون للتعريف به الكتاب الأول من مؤلفه : « في طبيعة العمران في الخليقة ... » وعن هذا العلم يقول « وكان هذا علم مستقل بنفسه ، فانه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الانساني ، وذو مسائل ، وهي بيان لما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخري . وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا »[٩٦] .

أما موضوع هذا العلم فينتسب علي المجتمع الانساني في مجموعة ، وفي تطوره ، أي ، علي حد قول ابن خلدون ، عل « الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات ، واصناف التغلبات للبشر[٩٧] بعضهم علي بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال »[٩٨] .

وفي دراسته « للعمران البشري علي جملته » يري ابن خلدون أنه « ضروري ... اذ الانسان مدني بالطبع » . هذا العمران أو الاجتماع البشري يقوم علي العمل الاجتماعي الذي يرتكز علي التعاون بين الأفراد[٩٩] .ويتم في وسط طبيعي يؤثر علي نوع العمران وأحوال أفراد المجتمع[١٠٠] . والعمران البشري ، أي المجتمع الانساني ، له في أثناء تطوره أشكاله المختلفة ، وعليه يكون « من الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والاجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام ... ذلك أن أحوال العالم والامم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم علي وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، انما هو اختلاف علي الأيام والأزمنة . وانتقال من حال الي حال . وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول »[١٠١] .

---

(٩٦) نفس المرجع ، ص ٣٨ . ثم أن ابن خلدون يعي أنه ينشيء علما جديدا ، حين يقول « وأعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة ، غريب النزعة ، عزيز الفائدة . أعثر عليه البحث وأدي اليه الغوص . وليس من علم الخطابة .. ولا هو أيضا من علم السياسة .. فقد خالف موضوعه موضوع هذين الفنين اللذين ربما يشبهانه . وكأنه علم مستنبط النشأة . ولعمري لم أقف علي الكلام في منحاه لأحد من الخليقة . لا أدري الغفلتهم عن ذلك وليس الظن بهم ، أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل الينا » . ص ٣٨ .

(٩٧) والأمر هنا يتعلق بالمجتمع ، بالبشر بسير الملوك . في نقده لمن يقتصرون في كتابة التاريخ علي سير الملوك يقول ابن خلدون أنهم « ذهبوا الي الاكتفاء بأسماء الملوك والانصار ، مقطوعة عن الأنساب والأخبار .. وليس يعتبر لهؤلاء مقال ، ولا يعد لهم ثبوت ولا انتقال » . المقدمة ، ص ٥ . وفي مجال تقديمه لكتابة يقول انني « بنيته علي أخبار الأمم الذين عمروا المغرب في هذه الأعصار ، وملأوا أكناف الضواحي منه والأمصار ، وما كان لهم من الدول الطوال أو القصار . ومن السلف من الملوك والأنصار . وهما العرب والبربر » . ص ٦ .

(٩٨) المقدمة ، ص ٣٥ .

(٩٩) المرجع السابق ، ص ٤٠ - ٤١ .

(١٠٠) المرجع السابق ، ص ٤٨ وما بعدها .

(١٠١) المرجع السابق ، ص ٢٨ .

أما عن منهج هذا العلم الجديد فنستطيع أن نجمع شتاته مما كتبه ابن خلدون على النحو التالي :

- أولا التسليم مقدما بأن الظواهر توجد خارج وعي الانسان تكون ترتبط أجزاؤه ارتباط الأسباب بالمسببات ، وأنها في تحول مستمر فهو يقول « أعلم ... أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والأحكام وربط الأسباب بالمسببات واتصال الأكوان بالأكوان واستحالة (أي تحول . م.د) بعض الموجودات الى بعض . لا تنقضي عجائبه ولا تنتهي غاياته وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثماني ، وأولا عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعدا من الأرض الى الماء ، ثم الى الهواء ثم الى النار متصلا بعضها ببعض . وكل واحد منها مستعد الى أن يستحيل الى ما يليه صاعدا وهابطا ويستحيل بعض الأوقات . والصاعد منها ألطف مما قبله الى أن ينتهي الى عالم الأفلاك . وهو الطف من الكل ، على طبقات اتصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها الا الحركات فقط ، وبها (أي بالحركات ، م.د) يهتدي بعضهم الى معرفة مقاديرها وأوضاعها وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار فيها . ثم انظر الى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج ، آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له ، وآخر أفق النبات مثل النخل والكروم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لها الا قوة اللمس فقط . ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب لأن يصير أول أفق الذي بعده . واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدرج التكوين الى الانسان صاحب الفكر والروية[١٠٢] ، ترتفع اليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحس والادراك »[١٠٣] .

- أن على الباحث ، ثانيا ، أن يهدف الى الكشف عن علاقات السببية ، اذ عليه أن يبحث عن تعليل الكائنات ومبادئها ، وأن يعلم « بكيفيات الوقائع وأسبابها » . وعليه يقول ابن خلدون عن كتبه « أني أبديت فيه لأولية الدول والعمران عللا وأسبابا » و « شرحت فيه من أحوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الانساني من العوارض الذاتية ما يتعلك بعلل الكوائن وأسبابها »[١٠٤] .

---

(١٠٢) في مجال آخر يقول ابن خلدون أن الانسان يتميز عن غيره من الحيوانات بالفكر . انظر المقدمة ، ص ٤٢٩ .

(١٠٣) المرجع السابق ، ص ٩٥-٨٦ .

(١٠٤) المرجع السابق ، ص ٦ . والتعرف على علاقات السببية هذه هو الذي يمكن القارىء من الوقوف على أحوال المجتمع ، ليس فقط بالنسبة للماضي وانما كذلك بالنسبة للمستقبل . « ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها ، حتى تتزع من أعقابهم بيدك ، وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك » ص ٦ .